مذكرات جمال عبد الناصر عن حرب فلسطين ١٩٤٨
كما نشرتها مجلة آخر ساعة فى مارس وابريل ١٩٥٥

لست أريد أن أرفع معنويات الجيش بعد حوادث غزة الأخيرة .. أريد أن أقول الحقيقة التى عشتها ..

الكتيبة السادسة – وجوها

كان الجو فى الكتيبة السادسة حين وصلت اليها فى حال عجيب .. كانت الكتيبة قد فرغت لتوها من عملية ضد مستعمرة الدنجور ، عادت بعدها الى مراكزها فى رفح ، ولقد تركت الكتيبة وراءها على أرض المعركة حول الدنجور ، بعض الضحايا الذين تركتهم الكتيبة عند الدنجور ، وكان من الضحايا .. ايمانها بالحرب التى تخوض غمارها .

وبدأت أسمع التفاصيل ..

صدرت الأوامر من القاهرة بأن تتحرك الكتيبة الى الدنجور فى ليلة ١٥ مايو . ولم يكن هناك وقت لكى تستكشف الكتيبة غرضها الذى سوف تهاجمه ، وكذلك لم تكن هناك معلومات قدمت لها عنه .

وكان هناك دليل عربى واحد نيطت به مهمة قيادة الكتيبة الى موقع مستعمرة الدنجور، ولم يكن هذا الدليل يعلم شيئا عن تحصيناتها ودفاعها ، وكل الذى قام به هو أن ظل يرشدالكتيبة الى الطريق ، ويدلى لها بمعلومات غير واضحة ولا دقيقة ؛ حتى ظهرت أمامها فجأة تحصينات الدنجور . ولم يسترح الجنود بعد الرحلة الشاقة ، وانما اندفعوا الى الأسلاك .

ولم يكن هناك من يعرف ما الذى يجب عمله على وجه التحديد ، ولكن المدافعين عن الدنجور كانوا يعرفون .

وأصيبت الكتيبة بخسائر لم تكن متوقعة ، وعند الظهر أصدر القائد أمره بالابتعاد عنها ، وعادت الكتيبة الى رفح ؛ لتجد بلاغا رسميا أذيع فى القاهرة يقول : إنها أتمت عملية تطهير الدنجور بنجاح !

ولاحظت بين الذى سمعت من تفاصيل ، ظاهرتين هامتين .. الأولى أن هناك نغمة بين الضباط تقول : إن الحرب حرب سياسية .

وكان لهذه النغمة ما يؤيدها ويتناسق معها من كل ما رأوا حولهم .

لم يكن معقولا أن تكون هذه حربا .. لا قوات تحتشد ، لا استعدادات فى الأسلحة والذخائر ، لا خطط ، لا استكشافات ، ولا معلومات ! ومع ذلك فهم هنا فى ميدان قتال .. اذن فهى حرب سياسية .. هى اذن حرب ولا حرب ؛ تقدم بلا نصر ، ورجوع بلا هزيمة .. هى حرب سياسية فقط .

والنغمة الثانية أن أساطير من المبالغات كانت تؤلف حول قوة العدو العسكرية . لقد فوجئت القوات بمقاومة مستعمرة الدنجور ، ولم تكن تعرف عنها شيئا . وسمعت واحدا من زملائنا يروى كيف أن أبراجا تعمل بالكهرباء كانت تطلع الى سطح الأرض وتطلق النار فى كل اتجاه ، ثم تهبط تحت الأرض أيضا !

ولم أكن مشتركا فى هذا الحديث ، ولكنى لم أستطع السكوت ، والتفت الى زميلنا أسأله :

– كيف عرفت أنها تعمل بالكهرباء ، إنك لا تستيطع أن تقطع بهذا الا اذا كنت دخلت المستعمرة وفحصت قواعد هذه الأبراج .. فهل فعلت هذا ؟

وسكت زميلنا ، ولكن أساطير الأبراج المتحركة بالكهرباء الضاربة فى كل اتجاه لم تسكت . ولم يكن اللوم فى رأيى موجها الى هؤلاء الشبان ، انما كان المسئول عنه نقص المعلومات عن العدو نقصا قاتلا مدمرا .

تعبير صادق

وبدأت بعدها كأركان حرب للكتيبة السادسة أشعر بالحيرة والعجز اللذين كانا يحكمان قيادتنا العليا أكثر من غيرى . وكانت مئات العوامل تتنازعنى ، ولم أكن أعرف الوسيلة التى أعبر بها عما أحس .

وأعترف أنى سمعت من أحد الجنود تعبيرا واضحا عن حالتنا .. قاله الجندى بلغته الساذجة الدارجة ، ولم يكن يعرف أننى أسمعه ، ولا كان يعرف أن عبارته الساذجة الدارجة كانت وصفا صادقا لما كنا فيه .

جاءت الأوامر الى الكتيبة بأن تهد معسكرها الذى تقيم فيه ، وتنقل الى مكان آخر يبعد عنه ثلاثة كيلو مترات . ولم أستطع أن أتصور الغرض من هذا التحرك ، ولكن الكارثة الكبرى أن الذين أصدروا أمرهم به ، لم يكونوا يعرفون له غرضا هم الآخرون .

وكان الدليل أنه بعد ثلاث ساعات من هذا الأمر ، وبينما نحن نقيم المعسكر الجديد ، جاءتنا أوامر جديدة بالتحرك الى المحطة وركوب القطار المتجه الى غزة .

وبدأنا نهدم الخيام التى لم نكد نفرغ من اقامتها . وجاء أحد الجاويشية الى جندى كان منهمكا فى اقامة احدى الخيام وقال له :

– يا عسكرى هد الخيمة .

ونظر الجندى فى دهشة الى الجاويش ، ولما علم أن أوامر جديدة بالتحرك لركوب القطار قد صدرت ، بدأ يهد الخيمة التى هدها فى الصباح من مكانها ، وبدأ عند الظهر يقيمها فى مكان جديد ، ثم أمر بهدها مرة أخرى قبل أن يفرغ من اقامتها .. وسمعت الجندى بأذنى يقول :

– يا خيبتنا .. يا خيبتنا !

يقولها منغمة ممدودة .. بهلجة ريفية ساخرة . وأحسست أن الشكوك التى كانت تساورنى حول عجز قيادتنا وترددها قد وصلت الى الجنود ، وأن هذا هو التعبير البسيط الساذج عنها .

وركبنا القطار الى غزة وفى قلبى هموم .. وعلى أى حال فقد كان يخفف من همومى أنى كنت أعلم أنى سوف التقى بعبد الحكيم عامر فى غزة ، وأنى سأتسلم منه مواقعها ؛ فقد كان

عليه كأركان حرب للكتيبة التاسعة التى يتولى العمل فيها ، أن يسلمنى كأركان حرب للكتيبة السادسة المواقع التى سنحل فيها مكانهم .

ليست هذه حربا

وكان بينى وبين عبد الحكيم عامر حديث طويل فى غزة ، ونحن نطوف بالمواقع التى كان عليه أن يسلمها لى .

كانت مواقع الكتائب الأربع فى فلسطين يومها كما يلى :

الكتيبة السادسة متحركة من رفح الى غزة .

الكتيبة التاسعة تستعد لمغادرة غزة بعد وصول كتيبتنا اليها .

الكتيبتان الأولى والثانية متحركتان الى الأمام فى اتجاه المجدل ، على الطريق الساحلى .

وأذكر أننى صارحت عبد الحكيم بهواجسى .. فقد كنت أحس أن هناك عملية بعثرة لقواتنا ؛ فنحن نتقدم على السهل الساحلى ، ونترك المستعمرات المحصنة وراء ظهرنا تهدد جناحنا الشرقى وخطوط مواصلاتنا .

وتركنى عبد الحكيم عامر مع كتيبته المتقدمة الى الأمام ؛ والتى كان عليها واجب فى معركة دير سنيد ، بعد أن سلمنى ألف جنيه كانت فى عهدته ، وكان على أن أشترى بهذه الألف جنيه كل ما أستطيع شراءه من جبن وزيتون .

لم يكن لدى الجنود المتقدمين تعيينات طوارئ يعتمدون عليها فى المراكز الأمامية ؛ حيث لا تستطيع الوجبات الساخنة أن تصل اليهم . ولم يكلف أحد خاطره أن يفكر فى أمر وجبات الطوارئ اللازمة للجنود المحاربين ، وكل الذى فعلوه أنهم بعثوا الينا بألف جنيه وقالوا لنا : اشتروا جبنة وزيتون .

واشتريت كل ما كان فى غزة من الجبن والزيتون ، وقلبى مجروح على الجندى الذى يهاجم المواقع الحصينة بجسده العارى ، ثم يجلس وقت الأكل فى جحر كجحور الفئران يقرض قطعة من الجبن .. اشترينا كل ما عثرنا عليه منه فى غزة بألف جنيه ألقوها الينا وقالوا لنا :

– تصرفوا ..

وكان قلبى المجروح يهتف بى فى كل دقة من دقاته :

" ليست هذه حربا " !

وبدأت وأنا فى مكانى فى غزة الاحق تطورات معركة دير سنيد التى كانت قد بدأت .. ألاحقها دقيقة بدقيقة . كنت أسمع دوى المدافع عن بعد . وكان الجرحى من رجالنا يصلون أفواجا بعد أفواج الى مستشفى غزة . وكانت ليلة ٢٠ مايو من أتعس ليالى حياتى .. قضيتها فى مستشفى غزة العسكرى ، والأسرة حولى كلها مليئة بجرحى معركة دير سنيد التى ما تزال مستمرة .

كل هذا وراديو القاهرة يذيع بلاغا أصدرته القيادة العامة تقول فيه : " إن قواتنا احتلت مستعمرة ديرسنيد ، واقتحمتها اقتحاما رائعا بالمشاة " .

وكانت هذه كذبة مؤلمة ؛ فإن المستعمرة لم تكن قد احتلت بعد ، وإن كان الشئ الوحيد الصحيح فى البلاغ الرسمى هو أن المشاة كانت تقوم بعملية اقتحام رائعة .

وكانت فى أعماقى ثورة على الذى كان يحدث أمام دير سنيد ، وتصل الى أخباره .. أى معركة هذه .. هذه التى يستهلك فيها جنود المشاة بهذه الطريقة المروعة فى هجمات نهارية مكشوفة ، وأجساد عارية لا تحميها قوات مدرعة ، أمام تحصينات قوية ، ومدافع ماكينة متحفزة فى أيد معدة مدربة ؟! صحيح أن موجات مشاتنا لم تتوقف ، كانت موجة منهم تسقط أمام النار فتجئ موجة بعدها غير هيابة ولا خائفة ، ولكن .. أكنا نسوق جنودنا الى معركة ، أم كنا ندفع بهم فى غير رحمة الى مجزرة ؟!

قائد بلا جنود

كان الموقف فى الميدان كله يظهر واضحا لعينى وأنا فى مكانى فى غزة .. لقد انتهت معركة دير سنيد بعد تضحيات غالية بالنصر ، برغم كل المصاعب التى كانت تحيط بقواتنا. وبعد المعركة صدرت الأوامر الى الكتيبة الأولى بالتقدم الى المجدل ، وتقدمت الكتيبة التاسعة الى أسدود ، ثم صدرت أوامر جديدة الى الكتيبة الأولى بالاتجاه شرقا واحتلال عراق سويدان، والفالوجا ، وبيت جبرين .

وكنت أكاد أفقد اتزانى وأنا أتابع هذه التطورات التى كانت تنشرها صحف القاهرة ، قبل أن تتحرك قواتنا طبقا لها فى الميدان ! ولم أكن أستطيع أن أدرك الهدف من هذه الأعمال جميعا . لقد كان هم قيادتنا أن تحتل أكبر مساحة من الأرض ، وكانت النتيجة أن الكتائب الأربع توزعت على خطوط طويلة ، وأصبحت قواتنا المبعثرة لا هم لها الا حماية نفسها ومواصلاتها .

ولم يعد هناك تحت تصرف القيادة احتياطى متحرك تستطيع أن توجهه الى ضرب العدو ، وأصبح قائد الجيش المحارب .. قائدا بلا جنود ، أو هو فى الكثير يحكم مجموعة من نقط الحراسة المبعثرة على جبهة واسعة . وكنت أرى بوضوح أننا فقدنا تماما القدرة على المبادأة ، وأسلمناها للعدو طائعين مختارين .

الحرب السياسية

وكان هذا الذى كنت أراه فى مكانى فى غزة ، واضحا أمام الضباط والجنود فى الخنادق ، وكان له أثره المدمر على الروح المعنوية .

كان كل جندى يشعر بالنقص فى السلاح ، وأكثر منه يشعر بالنقص فى الخطط . وأحس كل واحد أن القائد العام فى الميدان لا يملك من أمر قواته شيئا ، وأنه لا يتصرف طبقا لاحتياجات الميدان ، وانما هو يتصرف تحت تأثيرعوامل أخرى .. أبعدها عن حسابه ظروف الميدان .

وكان شعور الجنود والضباط بأنهم تحت رحمة العدو ، وهم هناك فى مراكزهم المعزولة المتناثرة؛ يجعلهم يشعرون بأنهم هدف منعزل محدد ثابت ، أمام عدو قادر على الحركة السريعة .

وعاد الكلام فى الخنادق مرة ثانية عن الحرب السياسية .. وكانت كارثة الحرب السياسية أبغض شئ الى تفكيرى فى تلك الظروف ؛ فقد كنت أعرف من عبر التاريخ أنه ما من جيش دخل حربا سياسية الا هزم فيها ، وكانت آخر الأمثال فى ذاكرتى هزيمة ويفل (١) فى معركة اليونان .

إن الحرب يجب أن تكون حربا ، والقائد فى الميدان يجب أن يتصرف طبقا لظروف الميدان ، ولكنا كنا فى حرب ولا حرب . وكان لنا قائد ولكن ليس له جنود ؛ لأنه بعثرهم على جبهة واسعة ؛ بحيث أصبحوا قوات حراسة تكاد ، مع التفاؤل الشديد ، تكفى لحماية نفسها فقط !

ووصلت كتيبة جديدة الى الميدان .. هى الكتيبة السابعة . وصدرت الى الأوامر بأن أسلمها قطاع غزة ؛ لأن كتيبتنا كان عليها أن تتقدم الى الأمام ، وتحتل مركز أسدود . وكنت أشد الناس سعادة بهذه الأوامر ، كنا أخيرا سنلتقى بالعدو ، ونخوض معركة ضده . وكنت مرة أخرى سألتقى بعبد الحكيم عامر ؛ فقد كان هو أركان حرب الكتيبة التاسعة المحاربة فى أسدود ، وكنت كأركان حرب للكتيبة السادسة سأتسلم منه مرة أخرى المواقع التى تحتلها كتيبته .

وقبل أن نتحرك من غزة جاءتنا أوامر غريبة .. جاءتنا اشارة استعداد بأن نجهز أنفسنا لنجدة الجيش الأردنى الذى كان مشتبكا فى معركة بباب الواد . ولم تكن لدينا أى معلومات عن معركة باب الواد .. وكان مدهشا فى رأيى أن تكون لنا أربع كتائب فى فلسطين ، ثم نتخلى عن واحدة منها ، ربع الجيش المحارب تماما ، ونبعث بها الى حيث لا ندرى فى باب الواد !

ولكن الأوامر من حسن الحظ ألغيت . وكنا على استعداد للتحرك ، ومضينا الى حيث كان علينا أن نمضى أولا .. الى أسدود .. الى حيث سنلتقى أخيرا بالعدو وجها لوجه .

تحت شجرة البرتقال

والتقيت بعبد الحكيم فى أسدود .. كان كما تركته لآخر مرة ، ابتسامته التى تبعث على الثقة، وروحه الطليقة ، وقضينا معا ليلة لا أنساها .

كان فراشه فى حفرة فى حديقة برتقال ، ووضعت فراشى فى نفس الحفرة على الناحية الأخرى من شجرة البرتقال . ولم ننم طول الليل .. كان الجو غريبا مثيرا . كنا فى أقصى المواقع الأمامية قرب العدو ، وكان جهاز اللاسلكى بجوار عبد الحكيم ينقل اليه التطورات دقيقة بدقيقة .

وعلمت من عبد الحكيم لأول مرة أن هجوما سيقع فى الغد على مستعمرة نيتسانيم ، وأبديت لعبد الحكيم قلقى من أن يتكرر أمام نيتسانيم ما حدث من قبل فى دير سنيد .

---

(١) ارشيبالد ويفل ، قائد القوات البريطانية فى الشرق الأوسط خلال الحرب العالمية الثانية .

وبدأ عبد الحكيم يهدئ من قلقى ، قال لى : إنه تعلم دروسا عن دير سنيد ، قال لى : إن روح الضباط الشبان عالية لدرجة أنه أجرى قرعة بين السرايا لكى يحدد أيها يقع عليها مهمة قيادة الهجوم ، ولكن قائد احدى السرايا تطوع ورفض اجراء القرعة ، وكان هو اليوزباشى محمود خليف، وكان أحد أفراد تنظيم الضباط الأحرار .

وتركنى عبد الحكيم عند الفجر .. ومضى الى المعركة . وقضيت يوما مشحونا .. كان على أن أرتب مواقع كتيبتنا فى مواقعها الجديدة . وكنت مشغولا فى الوقت نفسه بالذى يجرى أمامنا الى الغرب على الساحل فى نيتسانيم ، وكنت أتسقط أخبار المعركة .

وعند العصر جاءتنا الأخبار بأن الكتيبة التاسعة نجحت فى عملها ، وأنها استولت على مستعمرة نيتسانيم . وعلمت أن خليف ، قائد السرية المتقدمة ، قد استشهد ، وعلمت أن عبد الحكيم لم يطاوعه قلبه فمضى مع السرية المتقدمة ، وأن شظية أصابته ولكنه سليم بخير . وكانت تلك هى المعركة التى رقى فيها عبد الحكيم ترقية استثنائية فى الميدان .

وقضينا الليلة والعدو يطلق علينا النار ، ونحن نبادله نيرانا بنيران ، ولكن خواطرى لم تكن معى .. كانت تحلق فوق أرض الميدان كله . كنت أقول لنفسى :

– ها نحن قد نجحنا فى معركة نيتسانيم . إن روح الشجاعة لا تنقص ضباطنا وجنودنا اذن. لكن ذلك كان العامل المشجع الوحيد ، وفيما عداه كان الموقف كله يبعث على القلق .

كنت بخيالى أطوف الميدان كله فأجد قواتنا المبعثرة يقل تركيزها كلما اقتربت من الخط الأول لملاقاة العدو . كانت منتشرة على مساحات واسعة من الأرض ، على عددها القليل ، وكانت – كما قلت – قد تحولت الى نقط حراسة عليها أن تحمى نفسها . ولم يكن هناك فائض قوات يمكن استخدامه فى هجوم . لم نكن نحارب كجيش ، وانما تحولنا بعد دخول فلسطين الى جماعات متفرقة على مراكز واسعة الانتشار ، وكانت النتيجة أن العدو نجح فى تثبيتنا فيها ، واحتكر لنفسه حق المعركة وحشد القوات والهجوم علينا من حيث يريد .

وكنت أسأل نفسى وألح فى سؤالها :

– لماذا فعل قائدنا ذلك ؟ لماذا شتت قواته وبعثرها بهذه الطريقة ؟ لماذا سمح لنفسه أن يندفع فى خط طويل مكشوف من كل ناحية أمام العدو ؟

على ربوة عالية

وبدأت أخبار الهدنة تصل الينا فى الخنادق ، وجاءتنا الأوامر بوقف القتال فى السادسة صباحا من يوم الجمعة . وعاد الكلام مرة أخرى عن الحرب السياسية ، ولكن العدو لم يأخذها حربا سياسية ؛ فقبل حلول موعد وقف القتال بساعات ، تلقيت الأخبار بأن قوات منه قطعت الطريق بين المجدل وأسدود .

واستطعنا مع العصر أن نخرج العدو بالقوة من المراكز التى كان يحصنها على طريقنا ، والتى لو بقى فيها لاستطاع أن يمنع النجدة والمؤن عن قواتنا فى أسدود طوال فترة الهدنة . وقدت سيارة الجيب عند العصر الى حيث الموقع الذى حاول العدو احتلاله ، ورأيت لأول مرة جثث قتلى من جنوده وحولهم ما كان معهم من ذخائر .

ووقفت على ربوة عالية قرب هذا الموقع .. ومرة أخرى بدأت خواطرى تسرح .. هذا أنا على ربوة عالية فى فلسطين بين المجدل وأسدود .. البحر بزرقته الداكنة يمتد الى حافة الأفق جليلا مهيبا ، والشمس الحمراء فى موكب الغروب وألوانه الرائعة تهبط وراء البحر ، وبالقرب منى جثث عدو يحاول أن يقتلنا ، وقد نجحنا فى قتله .

والى الشرق مواقع قواتنا المتناثرة ، التى أدت كل ما طلب منها حتى الآن رغم العقبات التى واجهتها والمصاعب التى سدت طريقها ، رغم الجبهة الواسعة ، رغم القوات المشتتة المبعثرة ، رغم الحرب السياسية .. رغم النار تندفع اليها بلا دروع تحميها !

والى الجنوب مقر قيادتنا التى تعيش فى ميدان القتال ، وتحارب حربا سياسية ، والى الجنوب الشرقى عاصمتنا التى تتحكم فى أمرنا ، وتوجهنا الى حيث تريد ، وارادتها اليوم هى حرب ولا حرب .

وهناك بعيدا .. فى نيويورك مجلس الأمن حيث مجموعة من أحد عشر رجلا قرروا فيما بينهم أن تقف المعركة التى نعيش فيها ، وعلينا أن نطيع .

وملأت رئتى بهواء البحر ، واستدرت الى سيارتى عبر جثث العدو المبعثرة قرب الطريق وأنا أسأل نفسى :

– ماذا بعد ذلك ؟ ترى ما الذى يخبئه لنا القدر ؟

كان حالنا قبل الهدنة حربا ولا حرب ، وبعد أن عقدت الهدنة تطور حالنا الى سلام بغير سلام . وكان هناك شعور عام على خطوطنا بأن القتال لن يستأنف مرة أخرى ، وكان المنبع الذى انبثق منه هذا الشعور دون شك هو خرافة الحرب السياسية .

وما من شك أن ظواهر الأحوال ساعدت هذا الشعور على أن يغمر خنادقنا . كنا نخوض حربا بلا استعداد ، فى كل ناحية كان يمكن أن يستعد لها جيش يحارب . كان قائدنا فى الميدان يخضع من القاهرة لتوجيهات هى آخر ما تقتضيه احتمالات الميدان . كان فى نيويورك – حيث مجلس الأمن – من يملك أن يفرض الصمت على مدافعنا باشارة من يده !

وظهر التراخى – نتيجة لهذا كله – على مواقعنا ، وكنت فى مكانى فى أسدود ، كأركان حرب للكتيبة السادسة ، أرقب هذه الحال بقلق لا أستطيع أن أخفيه . وكان الذى يزيد من قلقى أنه فى الوقت الذى يحدث فيه ذلك لناحيتنا من خط القتال .. تضج الناحية الأخرى بما يمكن أن يكون نقيضا له فى كل شئ .

وكان فى أسدود برج عال ، وكنت أصعد الى أعلى البرج أحاول أن أمد بصرى الى الناحية الأخرى .. لم يكن عليها هدوء .. لم تكن تحكمها هدنة .. كان النهار يكشف أمامنا حركة متصلة ، وكان الليل يفشى أسرارا ، يحاول أصحابها اخفاءها تحت ستار الظلام .

وكنت عندما يجئ الليل فى كثير من الأحيان ، أترك مركز رئاسة الكتيبة الذى كان فى مبنى محطة السكة الحديد المصنوع بالأسمنت المسلح ، وأتجه الى البرج العالى ، وأقف هناك ساعات متصلة ، وعيونى متجهة عبر خطوطنا الهادئة الى الناحية الأخرى .

كانت أنوار المستعمرات البعيدة ، تبدو واضحة من ارتفاع البرج العالى ، وكنت ألمح أنوارا كثيرة متحركة متجهة الى المستعمرات عائدة منها . كان الموقف العسكرى كله من فوق البرج العالى، يبدو أصرح وأجلى ما يكون .. كانت أيام القتال بالنسبة لنا حربا ولا حرب ، وكانت بالنسبة للعدو حربا فقط . وأصبحت أيام الهدنة بالنسبة لنا ، سلاما ولا سلام ، ولم تصبح بالنسبة للعدو سلاما قط !

لم يهتفوا للقائد الأعلى

وكانت الأخبار تصلنى بانتظام عما يجرى فى الناحية الأخرى من الخطوط . وكان الموقف على الخريطة أشبه ما يكون بالموقف كما يبدو من قمة البرج العالى الذى يحمل فنطاس المياه لأسدود.

فى أول يوم للهدنة تحرك العدو ؛ فاحتل عبديس التى كانت قرية عربية تكاد تكون متداخلة مع خطوطنا . وتحرك العدو أيضا فاحتل بيت دوراس ، وتحرك العدو فاحتل الجسير ، وتحرك العدو فاحتل

العسلوج ، وتحرك العدو فاحتل جوليس . وتحرك العدو وحاول أن يدفع بعض قوافله المتسللة عبر خطوطنا الى المستعمرات المحاصرة فى النقب الجنوبى .

العدو اذن لم يأخذ الهدنة جدا ، لقد كانت بالنسبة له فرصة للتعزيز ؛ إنه يقفز تحت ستارها الى مواقع حاكمة ، يستطيع منها ، يوم تنتهى الهدنة ، أن يبدأ عملياته من أكثر المراكز ملاءمة لأغراضه .

كان الموقف واضحا لا خفاء فيه لمن يكلف خاطره فيلقى نظرة على الخريطة ، أو يتجه بعينيه عبر الناحية الأخرى من خط القتال ، ومع ذلك .. لم يبد فى قيادتنا ما يدل على أنها وعت المعنى الحقيقى الذى يجرى أمامنا ، وكان الذى يشغلها على ما يبدو فى ذلك الوقت هو اعداد التقارير الضافية عما جرى ، من يوم بدأت المعركة حتى فرضت الهدنة . وكان أبرز ما اهتمت له قيادتنا وأسهبت فى وصف تفاصيله ؛ هو كيف اقتحم الجنود مستعمرات العدو وهم يهتفون بحياة جلالة القائد الأعلى للجيش ، وهو ما لم يحدث بالقطع ، فإن الجنود المهاجمين كان يشغلهم من نيران العدو ما لا يمكن معه أن يخطر ببال واحد منهم أن يهتف لجلالة القائد الأعلى للجيش .

ماذا نصنع هنا ؟!

ومضت الأيام .. ومع مضى الأيام كانت همومى تزداد . لم يكن هناك ما أشكو منه فى أسدود ؛ فقد كان كل ما نحتاج اليه متوافرا وزيادة . كنا نعيش وكأننا فى معسكر فى القاهرة . كانت الضحكات تملأ خنادقنا ، وكانت النكات تلف المواقع ، وكانت بعض النكات التى تضحكنا فى ذلك الوقت خليقة بأن تبكينا .

وأذكر ذات يوم أنى التقيت بجندى من كتيبتنا ، وخطر فى بالى – دون سبب محدد – أن أوجه إليه سؤالا أحاول أن أعرف من ورائه مدى فهمه للذى نقوم به فى فلسطين . وقلت له :

– احنا هنا بنعمل ايه يا عسكرى ؟

وقال الجندى ، ولن أنساها طول عمرى :

– احنا هنا بنناور يا افندى !

وذهلت .. وقلت له :

– نناور .. نناور فين ياعسكرى ؟

وقال الجندى بلهجة الذى يقرر حقيقة بديهية :

– فى الربيكى يافندى !

ومنطقة الربيكى هى المنطقة الواقعة على طريق السويس ، والتى اعتاد الجيش المصرى أن يقوم فيها بمناوراته كل عام . كنا اذن نناور فى الربيكى ، ولم نكن نحارب فى فلسطين .. أو هكذا كان يعتقد جندى من كتيبتنا ! ولكن هل كنا نستطيع أن نلومه ؟!

أعمق من الثقة والصداقة

وضقت ذرعا بالبقاء فى مركز رياستنا ؛ فذهبت أتجول فى المواقع ، وأتعرف الى حقيقة الجو فيها بين الضباط . ولا أنكر أنى فى حقيقة الأمر كنت أحاول أن أضم بعضهم الى تنظيم الضباط الأحرار .

ولم أكن أتجه الى الأمر مباشرة فى أحاديثى مع الضباط ؛ فلم أكن أريد أن أشغلهم عن الجو المحيط بهم مباشرة ، ولا أن أشتت أفكارهم عن العدو الرابض أمامهم .. متربصا بهم ، ولكن طريقتى فى ذلك الوقت كانت ترتكز على عاملين :

أن أعطى الثقة لكل من أقابلهم .

والعامل الثانى .. أن أقوى صلتى الشخصية بهم الى أبعد حد .

وكنت واثقا – وبررت التجربة أسباب ثقتى – أن الثقة والصداقة كفيلتان ، عندما يحين الوقت المناسب ، أن تتحولا الى شئ أعمق .

وأنا أنظر حولى الآن ؛ فأجد وجوها كثيرة فى تنظيم الضباط الأحرار التقيت بها لأول مرة فى الخنادق ، فى تلك الفترة العجيبة من حياتنا فى فلسطين .

اليقين الضائع

وقاربت الهدنة أن تنتهى ، وكان لابد لجو التراخى على خطوطنا أن يشعر بالخجل ووخز الضمير .. وبدأت محاولات لتدريب الجنود . ووصلتنا أحاديث عن نجدات سوف تصل الينا ؛ تتقدمها قوات مدرعة . وانعقدت فى قيادتنا مؤتمرات لبحث الموقف عندما تنتهى الهدنة . وتلقت كتيبتنا فى صباح يوم ٢٨ يونيو أمرا انذاريا ؛ بالاستعداد للهجوم فى يوم لم يحدد بعد ، على هدف لم يحدد أيضا .

وكان هناك شيئا غريبا فى هذا كله ؛ كان مفروضا أن يكون هذا كله جدا ، ولكن شيئا ما ، نبرة خفية فى صوت الحوادث كانت تحمل على الشك . كان هذا كله أشبه بالجد ، ولكن – وهذا هو الغريب – لم يكن جدا ! فقد كان الشعور بأن الهدنه دائمة ، وبأن القتال لن يستأنف مرة أخرى ، وبأن الحرب كلها مناورة سياسية ، لا يزال يملأ خنادقنا .

وحضرت فى تلك الفترة مؤتمرا فى رئاسة اللواء ، وأذكر أن شعورا غريبا كان يملأ خواطرى ، وأنا أجلس الى مائدة الاجتماع فى رئاسة اللواء . كان اليقين الكامل ينقص كل ما كان يدور ويرسم من خطط،

وخيل الى أننى أرى مسرحا أمامى .. مسرحا يحاول كل واحد من الواقفين فيه أن يتقن دوره ، ويبالغ فى رسم معالمه ، ولكن كل واحد منهم يدرك أنه مجرد دور ، ثم ينتهى ويعود الى شخصيته الأصلية .

وكان هذا يتناقض مع روح القتال ، كما كنت أتصورها ، فإن مواجهة المعركة والتدبير لها ليسا مجرد دور يجيد ممثله أو لا يجيد ؛ إنه حياة .. وهو فى كثير من الأحيان موت أيضا ، ولكن اليقين كان ضائعا .. ومن هنا اختفت روح القتال الحقيقية .

عنب بيت دوراس

وفى يوم ٣٠ يونيو حضرت مؤتمرا حربيا ثانيا فى رئاسة اللواء ، كنت أحضره كأركان حرب للكتيبة السادسة ، وكان مفروضا أن نتلقى فيه تعليمات قيادتنا عن الخطة المقبلة لقواتنا ، ساعة تنتهى الهدنة .

كانت الخطة هى القيام بعمليات هجومية على طول الجبهة . وفى قطاعنا نحن كان الوضع كما يلى :

تتقدم الكتيبة السابعة ، التى كانت قد وصلت الى الميدان قبل الهدنة بقليل ، وتستولى على بيت دوراس . يجئ دورنا نحن ، الكتيبة السادسة ، بعد ذلك مباشرة حين تتقدم الى احتلال الصوافير الغربية والصوافير الشرقية .

ولم يكن مفروضا بالطبع أن أناقش الخطة ؛ فلم نكن فى المؤتمر لكى نناقش وانما لكى نتلقى الأوامر ، ويكون جوابنا عليها هو السمع والطاعة . ولكنى لم أستطع أن أمنع عقلى من أن يناقشها ، وإن كنت كبحت جماح لسانى عن أن ينطق بكلمة واحدة مما يدور فى رأسى.

وكان الذى فى رأسى سهلا منطقيا .. هذه الأهداف التى نرسم الخطط للاستيلاء عليها، كانت يوم الهدنة – وقبلها بالطبع – خالية تماما من قوات العدو ، فلماذا سكتت قيادتنا عن احتلالها ؟ لماذا تركت العدو يصنع هذا فى فترة الهدنة ، وأعطته شهرا كاملا لكى يدعم مراكزه فيها ويحصنها ، وبعدها نعود نحن لنهاجم لكى نستولى ؟

بل أكثر من ذلك .. كانت هذه المناطق كلها خالية حتى الى ما بعد أسبوعين من قيام الهدنة ، وكانت دورياتنا تذهب اليها ، وبعض الدوريات كانت تعود من هناك بكميات من العنب الشهى .. كنا نسميه عنب بيت دوراس ، فلماذا لم تكلف واحدة من هذه الدوريات العائدة بالعنب أن تبقى فى بيت دوراس وتحتلها ، وبالتالى تمنع العدو من احتلالها ، وبالتالى أيضا توفر الجهد الذى سنبذله الآن للاستيلاء عليها ؟!

وبمعنى آخر كانت كل هذ المواقع أمامنا لنأخذها بدون قتال ، ولكن قيادتنا العامة آثرت أن تترك الفرصة السانحة للعدو لكى يستولى هو على هذه المواقع دون قتال ، ثم يخوض جنودنا معارك حامية لكى يستردوها من يده ..

– احنا هنا بنعمل ايه يا عسكرى ؟!

وكانت الأفكار تتداعى فى رأسى ، واحدة بعد واحدة ، وأنا جالس فى المؤتمر أسمع ولا أتكلم ، وفى رأسى ما فيه من خواطر .. اذن فإن قائد العدو هو الذى أخذ المبادأة فى يده، واذن فإن قائدنا لم يستطع أن يقدر قيمة هذه المواقع فتركها لخصمه ، ثم أحس هو بعد خصمه بقيمتها ؛ فبدأ يجند الرجال لاستردادها .

ومع ذلك ، قلتها لنفسى ، وأنا أطرح ما فى رأسى كله جانبا : إن المهم الآن هو الواقع الموجود على الطبيعة ، ولنترك ما كان أو ما كان يجب أن يكون .

محاولات استكشاف

وعدت الى كتيبتى بعد المؤتمر فى ذلك اليوم وقلبى تملؤه الأحلام .. كيفما كانت الأحوال المحيطة بنا ، فيجب أن نقف على أقدامنا ونخوض معركة مجيدة . كنت أريد أن أفعل كل شئ من أجل كتيبتى .. كنت أريدها أن تضرب مثلا فى الميدان لغيرها من الكتائب ، وكنت أحس على أى حال أكثر من غيرى ، بالمصاعب النفسية التى تعيش فيها الكتيبة .. كانت الكتيبة مازالت تعانى آثار التجربة التى واجهتها أمام الدنجور . وصممت فيما بينى وبين نفسى أن نتلافى كل الأخطاء ، وأن نحسب كل العوامل ؛ حتى لا يتكرر الذى حدث فى معركة الدنجور .

وفى صباح أول يوليو ، والهدنة مازالت تحكم أرض العمليات ، خرجت مع قائد الكتيبة وزملائنا من الضباط الذين ستقع عليهم مسئولية العمل ؛ لكى نستكشف بعيوننا الميدان الذى سنحارب فيه . ولكن الاستكشاف لم يكن سهلا كما تصورنا ؛ فإننا لم نستطع على الاطلاق أن نلقى نظرة واحدة على الصوافير الشرقية أو الغربية . وكان السبب أن التبة العالية الممتدة أمامنا تخفى الصوافير تماما عن أنظارنا . ولم يكن فى استطاعتنا أن نصعد على التبة العالية ونلقى نظرة من فوقها ؛ لأن بيت دوراس التى يحتلها العدو كانت ترتكز فوقها من ناحية ، ومن الناحية الأخرى كانت ترتكز على معسكر جوليس ، الذى يحتله العدو أيضا .

وكان من رأيى أنه لابد أن تكون لدينا معلومات عن الهدف الذى ننوى أن نحارب من أجله ، وأن تكون هذه المعلومات مفصلة ، والا تكررت كارثة الدنجور .

وخرجت فى اليوم التالى ، ومعى ضابطان ، أولهما ضابط مخابرات الكتيبة ، والثانى هو الملازم أول اسماعيل محيى الدين ، ضابط فصيلة الحمالات ، وكان معنا اثنان من الجاويشية ..

أولهما الجاويش عبد الفتاح شرف الدين ، الذى لا يزال حتى الآن صول شرف فى القوات المسلحة ؛ والذى أعتبره أكثر الناس بلاء فى فلسطين .

وثانيهما الجاويش عبد الحكيم ، وهو الآن يعمل سائقا فى المنيا ، وقد زرتها منذ شهور قليلة ، وكان من أمانى أن التقى فيها بعبد الحكيم .

ليست قصة مغامرة

كان يخالجنى شعور بأن الاستيلاء على الصوافير سيكون عملية سهلة . ولست أدرى لماذا كنت أشعر شعورا خفيا بأن قوات العدو فيها ليست مما يخشى خطره . وعلى أى حال فها نحن فى الطريق لكى نرى بأنفسنا ونستكشف .

وتركنا سيارتى الجيب اللتين كنا نركبهما ، ثم بدأنا المرحلة الخطيرة من رحلتنا داخل مواقع العدو . كنا نخترق أرضا كلها حدائق ، وكنا نتسلل فى صمت بين الأشجار . كان اسماعيل محيى الدين – يرحمه الله فقد استشهد بعدها بقليل – يسير فى المقدمة ، وكنت بعده وبجوارى ضابط المخابرات . كان عبد الفتاح وعبد الحكيم يسيران على جانبنا ، وفى يد كل منهما مدفعه المتأهب لقذف النار .

ولست أريد أن أمضى فى تفاصيل الخطر الذى كان يحيط بنا ، فإن ما أرويه هنا هو قصة جيش ، وليست قصة مغامرة . والمهم على أى حال أننا استطعنا الوصول الى موقع متقدم يقع وسط خطوط العدو ، ولقد بدت لأعيننا الصوافير الشرقية والصوافير الغربية .

دليل من الكروم الناضجة

وقضينا نصف يوم نملأ عيوننا مما حولنا .. تأملت كل نقطة فى الصوافير ، ودرست احتمالاتها . وقام ضابط المخابرات برسم تخطيط كامل لمنطقة معسكر جوليس ، وما يحيط به من تحصينات .

ولقد وجدت ما يعزز رأيى الذى سبق أن كونته عن قوات العدو فى الصوافير . لابد أن عددها كان قليلا كما توقعت .. كان كل شئ حولى يؤيد هذا الرأى ، حتى أشجار الكرم المثقلة بما كانت تحمله من عنب ناضج ، فلو أن قوات الصوافير كانت جموعا كبيرة ، لما تركت منطقة الحدائق التى كنا فيها خالية ، ولما تركت هذا العنب الناضج الحلو مدلى من شجرة .

ولم يطل استمتاعنا بالعنب على أى حال ، فلقد لمحنا احدى دوريات العدو متجهة الى موقع النبى صالح ، حيث تركنا سيارتينا .. وهكذا بدأنا نتسلل عائدين .

وعدنا فى اليوم التالى الى منطقة النبى صالح ، واكتفينا بالوصول اليها ، فلم تكن بنا حاجة الى مغامرات الأمس ، وفى هذه المرة كان معنا قائد الكتيبة وقواد السرايا ؛ فقد أردت أن يرى كل منهم على الطبيعة دوره فى العملية ، وكان فى رأيى أن هذا يحقق غرضين :

الأول .. أن ترتفع روح الكتيبة المعنوية ؛ بأن تدرك تفوقها على العدو الذى يعلم كل شئ عنه وعن مواقعه قبل مهاجمته .

والثانى .. أن تحقق الكتيبة من وراء ذلك نصرا يرفع اسمها بين الكتائب المحاربة فى الميدان .

سوء الحظ يتدخل

وفى يوم ٦ يوليو كنت أستطيع أن أفاخر بأنه ما من كتيبة من الكتائب المتأهبة للعمل فورانتهاء الهدنة تعرف دورها مثل كتيبتنا .. كان كل واحد من ضباط الكتيبة يعرف عمله ، وكنا جميعا على استعداد .. كل الذى ننتظره أن تتحرك الكتيبة السابعة قبلنا ؛ فتحقق غرضها بالاستيلاء على بيت دوراس ، وفى أعقابها نتقدم نحن الى الصوافير .

ولكن الأمور لم تسر على النحو الذى أعددنا أنفسنا له ؛ فإن الكتيبة السابعة لم تستطع أن تقوم بدورها فى الخطة . ولم يكن الذنب ذنب الكتيبة ، وانما جاءت الكارثة من مهزلة صنعها سوء الحظ .

كان المفروض أن تتقدم قوة سودانية وتقوم بهجوم ليلى على بيت دوراس ، وتقتحم مواقعها بالليل معتمدة على المفاجأة . وكان على القوة أن تطلق اشارة ضوئية خضراء اذا نجحت مهمتها ، وحينئذ تتقدم الكتيبة السابعة فى أعقابها لتدعم وتعزز . أما اذا لم تسطع القوة السودانية أن تتم اقتحامها ، فعليها أن تطلق اشارة ضوء حمراء ، وتبتعد قليلا عن بيت دوراس ؛ لأن الخطة فى هذه الحالة أن تركز مدفعية الميدان الثقيلة كل نيرانها على بيت دوراس .

ونجحت القوة السودانية فى اقتحامها ، ولكن الفشل كان يدخر جهده حتى اللحظة التى تطلق فيها الاشارة التى تنتظرها الكتيبة السابعة . كان مفروضا أن تنطلق من السماء المظلمة اشارة خضراء ، ولكن الجندى المكلف باطلاق الاشارة استعمل طلقة حمراء .

وحين ارتفعت الاشارة الحمراء فى ظلام الليل ، بدأت مدفعية الميدان كلها على الفور تدق مواقع بيت دوراس التى تحتلها القوة السودانية . وفشلت المعركة طبعا ؛ فقد انسحبت القوة السودانية مسرعة ، ولما هدأ ضرب المدفعية عاد العدو الى احتلال بيت دوراس من جديد !

لقمة تتحجر فى حلقى

وكنا نحن فى الكتيبة السادسة نكاد نجن لهذا الذى حدث . كان معناه بالنسبة لنا أن تضيع الفرصة التى أعددنا أنفسنا لها ، وتضيع معها الآمال التى منينا أنفسنا بها ، ومعها كل ما بذلنا من جهد وأعددنا من خطط . ولم يكن هناك ما نستطيع عمله الا أن ننتظر التطورات المحتملة ، وندعو الله أن تسنح لنا خلالها فرصة ؛ فنصنع الذى أعددنا كل شئ لكى نصنعه .

وفجأة تطورت الأمور تطورا لم أكن أتوقعه .. وأعترف فيما بينى وبين نفسى ، وقد مضى على ذلك الوقت حتى الآن ما يقرب من ست سنوات ، أننى لأول مرة وأنا فى الميدان رفعت صوتى محتجا ضد أمر صدر من قيادتى .

كنا يوم ٩ يوليو .. وكنا جالسين للغداء فى مركز رياسة كتيبتنا ، ودخل جاويش يحمل مظروفا من رياسة اللواء عليه اسمى بوصفى أركان حرب للكتيبة السادسة . وفتحت المظروف ، وأنا على الغداء ، وبدأت عيناى تجريان على سطوره .. وفجأة أحسست أن الطعام تحجر فى حلقى !

كان الخطاب يحوى سطرين هما :

١- تسلم الكتيبة السادسة مواقعها اليوم الى الكتيبة الخامسة المتقدمة من غزة .

٢- تستولى الكتيبة السادسة باكر ١٠ يوليو على بلدة جوليس .

ولابد أن ملامح وجهى فضحت ما كان يدور فى نفسى وأنا أقرأ هذا الأمر ؛ فإن كل من كان معنا على الغداء من الضباط توقفوا عن الطعام وتطلعوا الى ، وكان شعورهم مثل شعورى بعد أن عرفوا ما عرفت .

ها نحن نوجه الى معركة لم نعد أنفسنا لها .. لم يقل لنا أحد ما هى مواقع جوليس ، وما هى قوة العدو فيها ، وما هى تحصيناته ، وما هى قواتنا التى تعمل حولها ، وما هى العمليات المحيطة بمنطقتها ! ولم يعطنا أحد الفرصة لندرس غرضنا مثل ما فعلنا فى الصوافير .

وأحسست أنه بالرغم من ارادتى ، وتحت سمعى وبصرى ، توضع الكتيبة مرة أخرى فى نفس ظروف الدنجور ، دون أن يكون بيدى ما أصنعه ! وبدأت أحتج ، ولكن ماذا يجدى احتجاجى ؟!

سباق مع الشمس

كان الوقت كالسيف المصلت على أعناقنا .. كان باقيا على غروب الشمس ثلاث ساعات .. هى آخر ما تبقى لنا من أمل لكى نخرج فى الضوء ، ونلقى نظرة على الهدف أمامنا . وخرجت مع القائد وقواد السرايا ؛ نحاول أن نقترب من جوليس الى أقرب ما يمكن أن نصل إليه . واقتربنا فى حمى احدى بيارات البرتقال ؛ حتى أصبح بيننا وبين جوليس ما يقرب من كيلو متر واحد ..

ولم نستطع أن نبقى طويلا ؛ فإن العدو على ما يبدو أحس بوجودنا ، فبدأ يفتش المنطقة بقنابل الهاون . ومن ناحية أخرى كان النهار يجرى بأسرع ما رأيت النهار يجرى فى حياتى ، وبدأت الشمس ترتمى فى أحضان الغروب .. ولم يكن مفر من أن نعود .. وعدنا .

كلام كلية أركان الحرب

وجلست بعد عودتنا الى مركز الرئاسة أضع الخطة . لقد أحس العدو أننا قمنا بالاستكشاف من ناحية بيارة البرتقال ، وسوف ينتظرنا فى الغد لكى نهاجمه منها بالطبع .. واذن فلن يكون هجومنا الرئسى غدا من هذا الاتجاه . سوف نبعث قوة تطلق النار لكى يظن العدو أننا وقعنا فى الشرك ، ولكن القوة الحقيقية التى ستنفذ الهجوم سوف تجئ من الخلف وسط مزارع الذرة ، وتنقض على مواقعه .

ووقع الخلاف بينى وبين قائد الكتيبة على دور المدفعية والطيران فى المعركة .. كنت كضابط أركان حرب أؤمن بالعمل المرتب الموقوت بجداول محددة . ورأى القائد أن يترك اليه أمر توجيه المدفعية والطيران ،

حسبما يرى حاجة على الطبيعة عند المعركة . ولم أكن أؤمن بهذه الطريقة ، ولكن لم يكن أمامى ما أفعله بعد أن قال لى القائد :

– وحياتك يا أخويا بلاش الكلام بتاع كلية أركان حرب ده !

وبدأ الصباح يطلع على أرض المعركة .. وعلى المعركة نفسها .. كانت البداية كما أردت وتمنيت، ولكن الباقى ، كل ماجاء بعد البداية ، لم يسر ، لا كما أردت ولا كما تمنيت !

وكانت أولى الخطوات على الطريق الذى لم أرده ولا تمنيته من قائد الكتيبة ، فقد قال لى فجأة وهو يراقب عمليات المشاة :

– احنا بنعمل ايه هنا .. يالا نشوف عساكرنا تحت !

وكانت تلك فى تقديرى روحا طيبة ، ولكنها كانت خروجا على العمل الذى يجب أن يقوم به القائد . إن مهمة القائد أن يمسك العملية كلها حتى لا تفلت ، ولكن مهمته ليست أن يترك الزمام ، ويجرى الى التفاصيل ، ويشغل نفسه بها وينسى قيادته المرجوة ساعة الخطر . وحاولت أن أقنعه برأيى ، ولكن الحماسة كانت قد ركبته !

ونزلنا الى حيث كان جنود المشاة ، ولكننا لم نستطع أن نصل ؛ فقد غرزت سيارتنا على الطريق ، ولم تستطع أن تشق سبيلها . ونزلنا ، القائد وأنا وحراسه ، ندفع السيارة من حيث عجزت عن الحركة . وأحسست أنى أفقد أعصابى .. بنفس الطريقة التى أحسست أننا نفقد بها المعركة .

لم نبق فى مركز القيادة ؛ حيث كان فى الامكان توجيه المدفعية وتوجيه الطيران ، ولم نصل الى جنود المشاة الهاجمين على مواقع العدو . وعندما وصلنا الى مشاتنا الهاجمين ، بدأ قائد الكتيبة الطيب يفقد أعصابه ؛ لقد التفت الرجل فوجد جنوده يتساقطون من حوله ، بعضهم يقتل وبعضهم يجرح ، وبدأ الرجل يصيح كالثور الهائج :

– العساكر بيموتوا !

واقترحت عليه أن نتجه الى الناحية الأخرى لنرى كيف تسير العملية ، وذهب معى ، وكان أول ما قابلنا أربعة من مدافع الهاون تنتظر دورها فى المعركة ، واذا القائد يصرخ قائلا :

– المدافع دى بتعمل إيه هنا ؟

ثم اذا هو يصدر أمره بأن تتقدم المدافع الأربعة ؛ لكى تتمكن من ضرب جوليس ، واذا هو يلتفت الى – أنا أركان حرب الكتيبة – ويقول لى :

– اطلع معاهم !

ونظرت اليه فى دهشة .. لقد كانت مهمتى كأركان حرب للكتيبة أن أبقى معه أساعده فى ادارة العملية وتنفيذ الخطة التى رسمتها ، وكان فى رأيى أن قيادة العملية بأكملها قيادة صحيحة أهم ألف مرة من مظاهرة شجاعة أخرج فيها بأربعة مدافع هاون .

وكان الموقف حساسا .. ولم أكن أريد أن أعارض قائد الكتيبة فى رأيه ؛ حتى لا يتصور الرجل أن معارضتى له لا تخرج من عقلى وانما تصدر من أعصابى .

ونظرت له ، وفى نفسى ما فيها ، وقلت له كلمة واحدة :

– حاضر .

وانطلقت مع المدافع الأربعة وسط حقول الذرة ، الى أن أصبحت جوليس فى تناول مرماها .

دموعى تهطل بحرقة

وبدأت مدافع الهاون تطلق قنابلها ، ولكنى لم أكن أسمع الدوى ، فقد كنت أتصور حال الكتيبة التى أفلت زمامها . وأحسست أن قلبى يتمرد على ، وعقلى يتمرد على قائدى ، وكنت مطمئنا الى وضع مدافع الهاون ؛ فقررت أن أعود لكى أحاول أن أمسك الزمام قبل أن تقع كارثة .

وقال لى ضابط لقيته بعد أن خرجت من حقول الذرة : إن اسماعيل محيى الدين قد قتل . ولست أظن أن من حقى أن أخفى اليوم مشاعرى الانسانية .. إنى أعترف أنى لحظتها فقدت السيطرة على عواطفى.. واذا دموعى تفلت ، واذا أنا أبكى بحرقة لم أشعر بها من قبل فى حياتى . كنت أبكى على زميل سلاح شجاع سقط فى المعركة .. وكنت أبكى على المعركة نفسها وزمامها فى يد الريح . ووصلت الى مركز الرياسة ، ولم يكن فيه أحد . وسألت عن القائد ، واذا هو خرج الى حيث لا يعرف أحد ، وبدأت أطالع فى لهفة الاشارات التى تلقتها الرياسة من سراياها المبعثرة فى الميدان ..

واحدة منها تقول :

" وصلنا الى الغرض .. ما هى أوامركم " ؟

وثانية تقول :

" نحتاج الى ذخيرة " ..

" وصلنا الى الغرض .. أرسلوا حمالات لنقل الجرحى " .

وكانت الكارثة ، أنها كلها اشارات يعود ارسالها الى وقت مضى .. فما الذى جرى لهذه السرايا فى مواقعها ، وكيف واجهت الموقف وحدها وقيادتها لا ترد عليها ؟!

وحاولت أن أواجه الموقف بقدر ما أستطيع .. وحاولت أيضا أن أتصل بقواتنا الموجودة غرب جوليس ، ولكن هذه القوات لم تكن ترد على اشاراتنا لها . ثم فهمت السر حين وصل أحد راكبى الموتوسيكلات يقول :

" إن القائد أصدر أمره بسحب القوة الموجودة فى الغرب ، وهو يطلب منى أن أسحب القوات المهاجمة من الجنوب " .

ولكن كيف أسحبها ؟ لقد سحب القائد القوة التى كانت تضلل العدو عنا ، دون اخطارى أو اخطارها. وبدأت أرى بوضوح أن كارثة تحلق فوق رؤوسنا ، وكان الذى يحز فى نفسى أن القوة المتقدمة من الجنود للهجوم الأصلى كانت تشق طريقها بنجاح .

وفعلت ما كنت مترددا فى عمله طول الوقت .. تخطيت قائدى المباشر ، قائد الكتيبة ، واتصلت بقائد اللواء أشرح له الموقف . وعلى أى حال فقد تحول هدفنا بعد ذلك من محاولة الاستيلاء على جوليس ، الى عملية يائسة لانقاذ قواتنا من الفخ الذى كادت تسقط فيه .

أجئ معك

وقضيت ليلة حزينة .. أحسست أن كتيبتنا قد فقدت روحها المعنوية .. وأحسست أن روحها العسكرية تفترسها الشكوك ، وأنها بالتالى لم تصبح سهلة القياد .

وفى الصباح جاءنا أمر من رئاسة اللواء :

" قائد الكتيبة السادسة يسلمها الى قائدها الثانى ، وينزل هو القاهرة " . ومن قلبى أحسست بالرثاء للقائد الجديد ، ولكن شعورى لم يدم طويلا ؛ فقد وصلنا أمر آخر بعد ساعة واحدة نصه كما يلى :

" تقوم الكتيبة السادسة باحتلال جوليس اليوم " .. وكان رأيى أن هذا مستحيل ، وكان القائد الجديد مترددا .

كان مقتنعا بما شرحته له عن الروح المعنوية فى الكتيبة ، وعن حالتها ، ولكنه كان مترددا فى أن يأخذ برأيى ويعترض على هذا الأمر ؛ حتى لا يقال إن أول عمل له بعد أن أصبح قائدا للكتيبة ، هو خوفه من أن يخوض بها معركة .

وقلت له :

– ليس أمامك خيار ، ولن تفقد شيئا على أى حال .. اذا اعترضت فقد يكون هناك احتمال بنقلك من قيادتك ؛ وهو مجرد احتمال . واذا أطعت فإن النصر مستحيل ، وسوف تنقل من قيادتك تلاحقك الهزيمة ؛ وهو أمر محقق .

واقتنع القائد بمنطقى ، وقال لى :

– تجئ معى الى القيادة العامة ؟

وقلت له :

– أجئ معك ..

مجرد صدفة

وبينما نحن ندخل رئاسة القوات بعدها بساعة واحدة ، لقيت غرفة على بابها لافتة باسم : مكتب المساعدة الجوية . ومررت عليهم أسألهم إن كان عندهم معلومات عن جوليس ، واذا ضابط فى المكتب يقول لى :

– عندنا مجموعة من الصور الكاملة للمنطقة من الجو .

وسألته : هل أستطيع أن أراها ؟

ووضع الضابط أمامى مجموعة كاملة . وبدأت أتأمل الصور ، واذا أنا أكتشف حقيقة عجيبة .. أن جوليس نفسها الواقعة فى سفح التبة ليست لها أى قيمة ، والمهم هو معسكر جوليس القابع فوقها على قمة التبة. ولو فرض ونجحنا فى دخول جوليس ، لكان معسكرها من فوق القمة قد صنع منها مصيدة ومقبرة فى نفس الوقت لقواتنا .

وبعد مناقشة قصيرة اعتمدت على صور عثرت عليها بمحض الصدفة ، اقتنعت القيادة العامة لنا بأن الاستيلاء على جوليس كارثة ، من حسن حظنا أن نعدل عنها .

وعدت الى مركز رياستنا وخواطرى ثائرة على كل شئ ..

ثائرة على أنه بمحض الصدفة فقط نجونا من كارثة محققة ..

ثائرة على معلومات قيمة تضمها صور التقطها الطيران فوق هدف كنا سنهاجمه ، ومع ذلك فما من أحد فكر فى ارسالها الينا ..

ثائرة على الذقون الحليقة الناعمة ، والمكاتب المريحة المرتبة فى مبنى القيادة العامة ، ولا أحد فيها يدرى بماذا تحس القوات المحاربة فى الخنادق ، ولا مدى ما تعانيه من الأوامر التى تصدر اليها بغير حساب.

ومع ذلك فلم تكن هناك فائدة ترجى من هذه الثورة .. وكان الأولى والأجدى أن أدخر أعصابى للمعركة الجديدة التى لم تلبث أن وصلتنا الأوامر بالاستعداد لها .

سوف أذهب معك

وكانت المعركة الجديدة نموذجا صادقا لكل ما خاضته كتيبتنا حتى الآن من معارك .. كانت هى الأخرى معركة على خريطة ..

أحدهم فى القيادة العامة نظر الى خريطة ملونة وأحس – وبيده الحق فى هذا الاحساس – أن لهذا الموقع أهمية قصوى ؛ فوضع اصبعه عليه وأرسل الينا أمرا باحتلاله ، ولكنه لم يبعث لنا مع الأمر بشئ يساعدنا

على التنفيذ . ولم تكن تلك التى تصلنا من قيادتنا العامة أوامر عمليات ، ولقد كنت أسميها قصاصات ورق ، وما أظن أننى أخطأت كثيرا فى هذه التسمية .

كان الموقع الجديد ، الذى يتعين علينا احتلاله ؛ لقطع مواصلات مجموعة المستعمرات الحاكمة على مدخل النقب ، مكشوفا بطريقة مروعة أمام نيران مستعمرات نجبا ، وكذلك كان الطريق المؤدى اليه من أوله الى آخره .

وجاءنى قائد السرية التى كان عليها أن تذهب لاحتلال الموقع يقول لى :

– هذه العملية بلاهة وجنون !

وكنت فى ضميرى مقتنعا بأن الذى يقوله لا يبتعد كثيرا عن الحقيقة ، ولكننى كنت فى نفس الوقت أشعر بالأهمية الخطيرة المعلقة على تقاطع الطرق ؛ فإن عملية الاستيلاء على مستعمرة نجبا رسمت خطتها كلها على أساس احتلال هذا الموقع .

وقلت لقائد السرية :

– سوف أذهب معك .

وخرجت معه ومع قوته ، وكانت الساعة الثالثة صباحا .. وعندما طلعت شمس الصباح كنا نحتل تقاطع الطريق ، وكان جنودنا يحفرون عليه مواقع يكمنون فيها ، وكان ثباتهم رائعا رغم النار المركزة عليهم.

موقف خفى

وبدأت معركة نجبا ، وكانت السرية فى مواقعها رابضة فى غير حاجة الى ، وقررت أن أعود الى المعركة . والتقيت عند نهايه الطريق المكشوف بأركان حرب اللواء ، وكان قادما ليستطلع الموقف .

ودهش أركان حرب اللواء ؛ فلم يكن يتصور أن الطريق الى مركز تقاطع الطرق مكشوفا الى هذا الحد ، ولم يكن هناك مفر من أن يركب حمالة مصفحة ، اذا أراد أن يعبر الطريق فى وضح النهار .

وعدت معه فى الحمالة المصفحة ، وقررنا العودة بعد قليل ، ثم وقعت حادثة من تلك الحوادث التى يتفنن القدر فى حبك مواقفها ..

سمعنا ضربا قريبا منا فى حقل ذرة .. وقال لى أركان حرب اللواء :

– هذا الذى يضرب قريبا منا ، هل يعتقد أن الدنيا خالية أمامه ؟

ثم اقترح قائد اللواء أن ننزل حقل الذرة بالحماله المصفحة ، نطارد الضاربين عن قرب فى جوار مواقعنا . وهبطت الحمالة الى حقل الذرة وتجولت فيه ، واذا بالسكون يسود ، واذا الطلقات التى كانت تئز من داخله تلوذ بالصمت . وتجولنا هنا وهناك وسط حقل الذرة ولا حس ولا خبر .. ولم يكن هناك ما يبرر أن نضيع وقتا أكثر مما أضعنا فى حقل الذرة ؛ فبدأت الحمالة تدور حول نفسها عائدة الى الطريق .

وكانت هناك لحظة خطيرة كنت أعمل حسابها ، وأحسست بهاتف خفى يحذرنى منها .. هذه اللحظة هى الثانية التى تعود الحمالة فيها ؛ فتصعد بمقدمتها على الطريق المرتفع من حقل الذرة ، فان سطح الحمالة كله فى هذه الثانية سيكون معرضا مكشوفا أمام حقل الذرة .

ولم يكن الهاتف الخفى وهما .. وإن كنت لا أعرف على وجه التحقيق ما هو ! فى نفس الثانيه التى انكشف فيها سطح الحمالة وهى ترتفع الى الطريق ، انطلقت المدافع الصامتة من حقل الذرة . وفجأة أحسست بشعور غريب فى صدرى ..شئ ما صدمه صدمة خفيفة .

التفت فوجدت صدرى كله غارقا بالدماء ! وأدركت على الفور أننى أصبت .. دخلت طلقة فى صدرى ناحية القلب . وأخرجت منديلى من جيبى أحاول أن أوقف النزيف ، وروحى كلها يملؤها شعور غريب ..

لم أكن خائفا ، ولم أكن نادما ، ولم أكن حزينا ..

كان كيانى كله سؤالا واحدا :

– أهى النهاية ؟

ولم أجزع لهذا السؤال . ولست أدرى لماذا ذكرت لأول مرة منذ جئت الى فلسطين ، ابنتى هدى ومنى ، وذكرت بيتى ، وذكرت أسرتى .. كيف سيكون وقع النبأ عليهم ؟ وفجأة ذكرت جنودى أيضا : كيف ستسير المعركة من غيرى ؟ ماذا سيقول كل منهم عندما يصله الخبر ؟

وكانت فى قلبى سكينة عجيبة ، وكان فى روحى رضاء وصفاء . والتفت الى أركان حرب اللواء الجالس بجوارى ، يحاول أن يصنع أى شئ وكل شئ من أجلى ، قلت له :

– اشعل لى سيجارة .

وأمسكت السيجارة بيدى واليد الأخرى مازالت تحاول أن توقف سيل الدم المتدفق من صدرى ، وجذبت نفسا طويلا عميقا وتنهدت وأنا أغمض عينى ، وكانت الحمالة تجرى بى مسرعة الى مستشفى المجدل .

ومرت أمام ذاكرتى ، وعيناى مغمضتان وفى احدى يدى سيجارة ، وفى الثانية منديل أحاول أن أوقف به نزيف الدم المتدفق من أثر رصاصة دخلت فيه .. مرت مشاهد كثيرة من الماضى كأنها شريط من الرؤى المتدافعة بعضها وراء بعض ؛ الأحلام والآمال ، الطفولة والصبا والشباب ، الأسرة والبيت وابنتى تلعبان فى حجراته ، تنظيم الضباط الأحرار والخطر المحيط به .. تجربة الميدان ومتاعبها وأهوالها ، جنودنا وضباطنا والأعمال التى قاموا بها حتى الآن رغم كل ما أحاط بهم .

وفتحت عينى مرة أخرى .. وجذبت نفسا طويلا عميقا من السيجارة المشتعلة فى يدى ، وكانت الحمالة لاتزال تكر على الطريق متجهة بى الى المستشفى .

نظرت الى الطبيب الذى فحصنى بعد أن وصلت الى مستشفى المجدل فى دهشة ، وأنا لا أكاد أصدقه فيما يقول ! لقد كان تحليله لظروف الرصاصة التى أصابت صدرى أغرب من أن يقبل بسهولة !

كنت قد دخلت عليه ، وأنا واثق ، من موضع الاصابة ، ومن نزيف الدم من صدرى ؛ إن الجرح نافذ ، وأن الرصاصة وصلت الى حدود القلب . ورفعت منديلى الغارق بالدماء ، والذى كنت أحاول به أن أقف الدم المتدفق من صدرى ، ونظرت الى الطبيب وقلت له :

– صارحنى بالحقيقة ولا تتردد .

وبدأ الطبيب يفحص الجرح وهو يهز رأسه بطريقة لم أستطع ادراك مدلولها . وبدأت أتعجل سماع رأيه .. فقلت له :

– أهو جرح نافذ ؟

وابتسم الطبيب وهو ما يزال يهز رأسه ، ثم قال :

– أعذرنى .. فإننا لا نرى مثل هذه الحالة كل يوم !

ثم سألنى :

– هل تعرف ما حدث لك ؟

قلت :

– أعرف أهم ما فيه على الأقل .. لقد أصابتنى رصاصة فى صدرى .

قال :

– هذا صحيح .. ولكن هل تعرف كيف أصابتك ؟

وقلت له وقد بدأت أضيق بهذه المناقشة :

– كما يصيب الرصاص أى واحد من الناس .

وهز الطبيب رأسه ينفى نفيا قاطعا ، وقال :

– لا .. لقد أصابتك رصاصة ، ولكن بطريقة تختلف عن اصابة بقية الناس بالرصاص . إن الطلقة التى أصابتك اصطدمت بالجدار المصفح للحمالة التى كنت تركبها ، فحدث لها شئ غريب لا يحدث عادة للرصاص ؛ لقد انفصلت الرصاصة نفسها عن غلافها المعدنى ، وطاشت الرصاصة عنك ، أما الذى دخل الى صدرك فكان غلافها المعدنى فقط .

واستلقيت أمام الطبيب على مائدة العمليات وبدأت مشارطه تجرى حول مكان الاصابة ، وبعد عشر دقائق قال لى وهو يناولنى قطعا من شظايا النيكل الممزق :

– خذ احتفظ بها .

وأمسكت الشظايا الممزقة التى كانت مستقرة فى صدرى ووضعتها فى راحة يدى ، ورحت أتأملها..

وحين سألت نفسى :

– ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الأمر جرى على العكس .. لو أن الرصاصة حينما اصطدمت بالجدار المصفح للحمالة وانفصلت ، كان الغلاف هو الذى طاش ، وكانت الرصاصة نفسها هى التى اتجهت الى صدرى ؟

حين سألت نفسى هذا السؤال ، وجدت روحى كلها أقرب ما تكون الى الله وأنا أغمغم فى سرى :

الحمد لله ..

صيام فى كتيبتى

كان مستشفى المجدل كله خاليا الا منى . كنت حين وصلت اليه فى الصباح النزيل الوحيد فى كل عنابره . ولقد كان أول ما خطر الى ذهنى بعد أن عرفت حقيقة اصابتى .. أننى لم آكل شيئا منذ وقت طويل. وطلبت فنجانا من الشاى الساخن ، أخذت أحتسيه بهدوء ، وعقلى مازال يدور حول الطريقة الغريبة التى نجوت بها . وأحسست بعد فنجان الشاى أن شهيتى قد تفتحت ، وأننى أشعر بالجوع كما لم أشعر به أبدا ، وطلبت طعاما .

وتلقيت صدمة حياتى لما قيل لى :

– ليس عندنا طعام !

وقلت بدهشة :

– كيف .. إننى جائع ؟

– وقيل لى :

– إن المفروض أن تبعث اليك كتيبتك بطعامك الى هنا !

ونظرت الى الذى قالها لى ، وقلت له مستنكرا :

– كتيبتى ؟!

وعدت أكرر مرة أخرى :

– كتيبتى ؟! كتيبتى ؟!

ثم نظرت اليه أقول :

– أين هى كتيبتى ؟

وقفز الى خيالى ، والى أعصابى فجأة احساسى بكتيبتى .. أين هى ؟ لقد تركتها لآخر مرة منذ ساعات قليلة فى وضع لا تحسد عليه .. تركتها مشتتة على مواقع مفتوحة مكشوفة .. تركتها .. وقد أصدرت اليها قيادتنا أمرا بأن تدخل وسط العدو لكى تحاصره .

وهززت رأسى والصورة الكاملة للحالة التى تركت عليها كتيبتى تملأ وجدانى ، وعدت أقول ، وكأننى أكلم نفسى بصوت عال :

– نعم هذا هو الذى فعلوه تماما .. قالوا لنا ادخلوا وسط العدو لكى تحاصروه ، ولكن كيف نحاصره وهو يحيط بنا من كل جانب ؟ لقد حدث ما كان يجب أن يحدث .. حينما أصبحنا وسط قوات العدو ، أصبحت قواته هى التى تحاصرنا ، ولسنا نحن الذين نحاصر قواته !

ولكن كيف كان يمكن أن ندخل فى وسطه ، ونصبح مع ذلك نحن الذين نحاصره ؟ نعم .. كيف ؟ .. كيف فكروا فى ذلك ؟

وأفقت من خواطرى على صوت الذى طلبت منه الطعام فى مستشفى المجدل وهو يقول :

– هيه .. هل رتبت مع كتيبتك أن تبعث اليك بطعام ؟

وقلت له ، ونصف ابتسامة مغتصبة تمر على شفتى :

– ليت كتيبتى فى مواقعها التى هى فيها تجد من يبعث اليها بطعام !

ونظر الى الرجل وقال لى :

– لا أفهمك .

وقلت له وأنا أنهى المناقشة :

– ليست هذه مشكلة ملحة على أى حال .. هل أجد عندك من يذهب الى السوق لكى يشترى لى طعاما ؟

وحين عاد أحد الجنود من السوق بعد أن اشترى لى رغيفا من الخبز وخمسة أقراص من الطعمية وعنقودا من العنب ، وجدت شهيتى قد ضاعت منى .. ووجدت أن الطعام هو آخر ما كانت تطلبه نفسى .

تأثير الصدمة

واستلقيت على سرير المستشفى منهوك القوى .. كان التعب المادى والمعنوى الذى عشناه فى الأيام الأخيرة قد بدأ يجتر عظامى وأعصابى . ومع أنى كنت بجسمى مستلقيا على الفراش ، فإن عقلى لم يكن مستلقيا معى . لم أستطع أن أرغم تفكيرى على أن يمنح نفسه اغفاءة قصيرة تريحه بعد مجهود عنيف .

كان خيالى هناك فى المواقع مع كتيبتنا .. وكان هناك شئ يضغط على ضميرى . لقد كنت أركز العمل كله فى يدى كأركان حرب الكتيبة .. فكيف الآن تجرى الأمور من غيرى ؟

من الذى تقدم ليحمل المسئولية التى سقطت عن كتفى ؟

وما هو تأثير عمله على الضباط وعلى الجنود فى مواقعهم ؟

وهتف بى خاطر :

– إن جرحك غير نافذ ، فما هو معنى بقائك فى المستشفى ، شظايا نيكل دخلت صدرك ؟

وهممت بأن أقوم .. ارتكزت بمرفقى على حافة الفراش وبدأت أرفع جسدى ، ولكنى لم أستطع أن أمضى فى المحاولة الى آخرها ، وتركت الجزء الذى كنت تمكنت من رفعه من جسدى يعود فيرتمى على الفراش من جديد . كنت متعبا ، وكان تأثير الصدمة ؛ صدمة الاصابة ، وتأثير الدم الذى نزف من صدرى ، مازالا طاغيين على أعصابى . وعزمت فيما بينى وبين نفسى أن أستسلم للراحة قليلا ثم أهب بعدها لكى ألحق بكتيبتى فى مواقعها التى تركتها عندها .

عهد على نفسى

ولكنى لم أستطع أن أستسلم للراحة أبدا .. فجأة أحسست بالمستشفى كله يموج بالحركة .. كنت منذ دقائق نزيله الواحد ، ولكنه فجأة يضيق بالوافدين عليه . وأدركت على الفور أن هذه هى نتائج المعركة الدائرة حول نجبا ، وتركت فراشى ملهوفا وأسرعت الى الطواف بعنابر المستشفى كلها .

ولم يكن مفروضا أن يبقى فيه بعد الاسعاف السريع الا ذوو الاصابات الخفيفة ، أما الحالات الخطرة فقد كانت بعد الاسعاف السريع ترحل فورا الى غزة . ويظهر أن المستشفى من كثرة الذين جاءوا اليه لم يستطع حتى أن يمارس مهمة الاسعاف السريع ، فبدأ يحول الواصلين اليه الى غزة مباشرة ، بعد أن ضاق بالذين ملأوه فى ساعات قليلة !

كان الحال حولى مروعا .. كانت كل الملابس من حولى مصبوغة بلون الدم . كانت هناك تأوهات ، وآلام يحاول أصحابها أن يكبتوها ويتشجعوا ، وكان هناك زميل سلاح اخترقت رصاصة خوذته فوق رأسه ومزقت فروته ، وتأملت خوذته وإصابته ، وأحسست أنى كنت أكثر من محظوظ .

وكان هناك زميل سلاح آخر أصيب بصدمة عصبية .. كان شابا .. وكنت أعرفه ؛ فقد كان تلميذى يوم كنت مدرسا فى الكلية الحربية ، وكان يهذى من صدمته بما لا يعى . وتصورت يوم جاءنا فى الكلية لأول مرة يرتدى الملابس المدنية . وذكرته فى مراحله المختلفة ونحن نصنع منه جنديا مقاتلا .. وها هو ذا يعيش التجربة التى كنا نعده لها !

وقضيت الليل كله ساهرا لا يقترب النوم من عينى .. كنت أفكر فيمن حولى ، وفى البعيدين عنى فى المعركة ..

وكنت أفكر فى الحرب نفسها .

وأحسست من قلبى أنى أكره الحرب .. ليست هذه الحرب التى كنا نخوضها بالذات ولكن فكرة الحرب نفسها . أحسست أن الانسانية لا تستحق شرف الحياة اذا لم تعمل بقلبها من أجل السلام . ووجدتنى أقول لنفسى :

– ما هذا ؟ .. إننا نسفك دم انسانيتنا بهذه الحياة التى نحياها فى ميدان القتال .. أكون جالسا مع صديق ونفترق ، وبعد دقائق يدق التليفون وأرفع السماعة ويقول لى أحدهم :

– إن فلانا قد مزقته قنبلة .

ولا أتأثر ؛ فإنه لا ينبغى لجندى أن يتأثر فى ميدان قتال ، وانما على أن أقول ببساطة :

– " حسنا .. أبلغوا جماعة الدفن " !

ولست أدرى لماذا وجدتنى أقطع عهدا على نفسى : " لقد عاهدت نفسى أننى لو كنت مسئولا فى يوم من الأيام فى بلدى ، فسوف أفكر ألف مرة قبل أن أدفع بجنودنا الى حرب .. لن أدفعهم اليها الا حيث لا يكون مفر ؛ حين لا تكون هناك وسيلة أخرى غيرها ، حين يكون شرف الوطن مهددا وكيانه فى مهب العواصف ، وما من شئ ينقذه الا نيران معركة " .

جثتى أو شبحى

واستيقظت فى الصباح على احساس غريب .. احساس بأن أحدا ينظر الى ويحملق . وفتحت عينى.. وكانت هناك عينان مسمرتان على فى ذهول .. وكان زميلا من أصدقائنا فى رياسة القوات ، وقال وفمه ما زال مفتوحا من الدهشة :

– أنت هنا ؟

قلت : نعم .. أى غرابة فى ذلك ؟

قال : لقد كتبوا اسمك أمس فى قائمة الخسائر .. فى قائمة القتلى ، وظننت حين رأيتك على هذا السرير أنى أرى جثتك أو أرى شبحك !

وقلت له : ها أنت ذا ترانى حيا أمامك .

ثم استدركت قائلا : هل تستطيع أن تخطر رياسة القوات أننى لم أمت بعد ؛ حتى لا تتلقى أسرتى اشارة تنعانى اليها شهيدا فى ميدان القتال !

ولم تكد تمضى ساعات قليلة من النهار حتى دخل العنبر الذى كنت فيه قائد كتيبتنا . وقبل أن يسألنى عما جرى لى ، كنت أحاول أن أطمئن منه على حالة كتيبتنا .

ولم يكن فى الذى سمعته كله شئ واحد يدعو الى الاطمئنان ! إن السرية الأمامية التى تقدمت معها فى الفجر الى مواقعها على تقاطع الطرق بين نجبا والمستعمرات الأخرى ، قد أصبحت فى خطر . إن العدو لم يعطها الفرصة لكى تحفر خندقا أو تحصن موقعا أو تمد سلكا شائكا . إن النار مركزة عليها ، ولا يستطيع جنودنا هناك أن يرفعوا رؤوسهم ، ومع ذلك استطاعت السرية أن تصمد .

ردت على العدو نارا بنار ، وهجم عليها المشاة من جنوده ليلا ؛ فجرى اشتباك بالسونكى والقنابل اليدوية ، وارتد العدو تاركا أسلحته وقتلاه على أرض المعركة ، وعاد جنودنا الى مواقعهم يقبعون فيها كأنهم كتل من الصخر .

مسألة اختصاصات !!

وتضاعف احساسى بالقلق على السرية الأولى المتقدمة من كتيبتنا ، عندما سألت القائد :

– ماذا جرى فى المعركة الأصلية ضد نجبا .. المعركة التى ذهبنا فيها هناك الى الموقع المكشوف على تقاطع الطرق لكى نساعد على انجاحها ؟

وقال لى القائد ، وهو ينفخ الهواء من أنفه ويزم شفتيه :

– لقد فشلت معركة نجبا !

لقد كانت الكتيبة التاسعة تهجم عليها بالمشاة فقط ، وظل قائدها يبعث بالجنود موجة بعد موجة ، متقدمين تحت نار العدو حتى سقط منهم عدد كبير . واكتشف قائد الكتيبة التاسعة أن نصف جنوده وضباطه قد سقطوا على أرض المعركة ، وهو يأمرهم جماعة بعد جماعة : تقدم .. تقدم .. فاضطر بعدها أن يوقف الهجوم ، ويعطى أمرا للباقين من قواته بأن ينسحبوا الى مواقعهم .

ومضى قائد كتيبتنا يعلق على ما حدث :

– هل يمكن أن ينجح هجوم على مستعمرة محصنة من غير دبابات ؟!

وكان عقلى قد شرد الى وضع سريتنا الأولى المتقدمة .. السرية التى ذهبت معها ، ووضعتها فى مكانها بين المستعمرات ؛ لكى تمنع وصول امدادات من الخلف الى نجبا ..

ماذا جرى لها ؟

سوف تتحول قوات العدو كلها اليها بعد أن توقفت المعركة الأصلية !

وسألت قائد كتيبتنا فى لهفة :

– هل سحبت هذه السرية المتقدمة من مكانها ؟

وهز الرجل رأسه ، وقال بحسرة :

– لا ..

قلت وأنا أهم قاعدا على سريرى :

– لا .. لم تسحبها .. لماذا ؟ هل تريد أن تتركها لينزل عليها العدو بكل قواته ويبيد جنودها واحدا واحدا ؟

وقال القائد بيأس :

ماذا أصنع ؟ لقد اتصلت برياسة اللواء الثانى الذى تتبعه كتيبتنا أطلب منهم الأمر لكى أسحبها ، فقالوا لى : لا شأن لنا بك .. أنت تابع للواء الرابع ؛ فإن المعركة التى دخلتها فى معاونة الكتيبة التاسعة ، وهى تابعة للواء الرابع .

وصحت بالقائد :

– ولماذا لم تتصل باللواء الرابع ؟

وقال القائد ، واليأس يمزق ألفاظه :

– اتصلت بهم .. وقالوا لى أنت تابع للواء الثانى ، وعليك أن تتلقى منه أوامرك .

وقفزت أرتدى ملابسى ، وأنا أقول لقائد كتيبتنا :

– هيا بنا الى هناك .. لقد جن هؤلاء الناس وفقدوا صوابهم !

تماثيل من الصخر

كان أول ما فعلته حين دخلت مركز رياسة كتيبتنا أن أسرعت فاتصلت بالسرية الأولى ؛ أحاول أن أعرف على وجه التحديد حقيقة موقفها . كان حالها أخطر مما تصوره خيالنا .. كان العدو يحاصرها من ثلاث جهات ، وكان لابد من خطة مدروسة حتى آخر التفاصيل ؛ لكى نستطيع انقاذها من هذا الوضع الذى تركت فيه ، وكان لابد فى رأيى من معونة من المدفعية .

وذهب قائد الكتيبة الى مركز رياسة اللواء الرابع يطلب الموافقة على سحب السرية ، اذا لم تكن هناك خطة لا نعرفها تتطلب بقاءها حيث هى . ومع أنى كنت أعرف أنه ليس هناك خطة على الاطلاق ؛ فلم يكن هناك مفر من استئذان رياسة اللواء قبل البدء فى العملية ، خصوصا أننا كنا سنطلب منها أقصى معونة من المدفعية .

وفى الساعة الواحدة بعد الظهر .. وافقت الرياسة أخيرا على سحب السرية . وكان لابد أن يكون مع السرية فى انسحابها ضابط من المدفعية ؛ لكى يستطيع توجيه النيران الى مواقع العدو المحيط بالسرية . وكان لابد من ادخال أحد ضباط المدفعية الى مواقع السرية المحاصرة .

وأخذت ضابط المدفعية فى سيارة مدرعة ، وذهبت معه بنفسى ؛ فقد كنت أعرف الطريق الذى عبرته مرارا وأصبت عليه ، وكان من الخير أن أذهب معه أنا بدل أن يذهب واحد غيرى لا يعرف الطريق ومعالمه .

ووجدت نفسى بعد قليل بين جنود السرية المحاصرة ؛ الذين غادرتهم بعد أن جرحت منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة بقليل . كانوا كعفاريت الجن ، رغم كل ما حدث لهم . كانت المنطقة كلها مغطاة بالرمل الصلب المتماسك قطعا قطعا ، وكانوا هم على الرمل الصلب كتماثيل من الصخر ، ومدافعهم فى أيديهم متجهة الى العدو .

وشرحت لقائد السرية خطة الانسحاب ، وبدأ ضابط المدفعية يساعد مدافعنا على تسجيل أهدافها من مواقع العدو . وبدأت مدفعيتنا الثقيلة تهدر .. ثم جاء دور قنابل الدخان ، ونجحت عملية الانسحاب ، رغم الجهد اليائس الذى بذله العدو ليعوقنا .

تحت نجوم السماء

كان حال كتيبتنا فى ذلك اليوم يدعو الى الرثاء .. لقد تجمعت كل السرايا ، ولم يعد العدو يحاصر بعضها .. هذا صحيح ، ولكن التعب كان قد نال من جنودها وضباطها بشكل واضح . لم يكن واحد من ضباطنا وجنودنا قد عرف النوم لخمس ليال متوالية ، وهكذا أحسست أن الأمر الذى صدر الينا فى تلك الليلة هو أعقل أمر أصدرته قيادتنا العامة ..

كان الأمر كما يلى :

" تترك الكتيبة السادسة مواقعها للكتيبة التاسعة ، وتذهب هى الى الراحة " .

لقد كان ضباطنا وجنودنا فعلا أشد ما يكونون حاجة – بعد كل الظروف التى عاشوها – الى الراحة .. كانوا فى حاجة الى ساعات تغمض فيها عيونهم ، وتسكن جوارحهم ، وينقطع أزيز الرصاص وانفجار القنابل فوق رؤوسهم . وكان المكان الذى خصص لراحتنا هو بقايا معسكر بريطانى مهجور بجوار مستعمرة نيتسانيم التى تحتلها قواتنا . وأحسست وأنا أدخل بسيارة الجيب الى أطلال المعسكر القديم ، أنى أدخل قصرا منيفا .. أو هكذا بدا لعينى وقتها .

أخيرا سوف نقبع وراء جدار مبنى .. لقد كان مبنى المعسكر بلا سقف وبلا نوافذ ، ولكن ماذا تهم السقوف والنوافذ ؟! المهم أن هناك جدرانا . واستلقيت على ظهرى ونجوم السماء تطل على من حيث لا سقف فوقى ، ولكن استمتاعى بنجوم السماء لم يدم طويلا !

سرية بعد سرية

بعد خمس دقائق فقط دخل أحد الجنود غرفتى – التى لا باب لها – ليقدم لى اشارة من الرئاسة ؛ تطلب منا أن نبعث باحدى سرايا الكتيبة لكى تساعد فى معركة ناشبة فى أسدود . واستيقظت فى الصباح على اشارة ثانية ؛ تطلب سرية ثانية لكى تعاون الكتيبة التاسعة عند عراق سويدان . ومع أننى أطعت الأوامر وبعثت بالسريتين المطلوبتين ، الا أن سخطى لم تكن له حدود .

لقد كنت أريد أن تستريح الكتيبة ، وتسنح لها الفرصة لتعيد تنظيم نفسها وتحسب خسائرها وتنظم صفوفها ؛ لتكون جاهزة عندما تدعوها حاجة الى معركة ، ولكن بدلا من ذلك .. ها هى السرايا تسحب منا واحدة بعد واحدة . وبلغ سخطى مداه عندما طلبوا منا سرية ثالثة ، ولكن ظروف طلب السرية الثالثة كانت أكثر مما يمكن تحتمله أعصاب بشر !

كانت قيادتنا العامة قد بدأت معركة ضد مستعمرة بيرون اسحاق ؛ الواقعة أمام غزة ، ومع أن القائد العام للقوات ، ومدير العمليات ، وقائد الطيران ؛ كانوا جميعا بأنفسهم يشرفون على المعركة الجديدة ، فإن الهجوم على بيرون اسحاق كان نموذجا متكررا للعمليات التى جرت قبل ذلك فى دير سنيد ، وفى نجبا .. مشاة بلا دروع ، أمام مواقع محصنة !

واستطاع مشاتنا أن يدخلوا الى المستعمرة ، ويحاربوا فيها من بيت الى بيت ؛ حتى أن أحد مراقبى الهدنة طلب من القائد العام أن يأمر بوقف القتال لأن المستعمرة سوف تستسلم ، ورفض القائد العام واستمرت المعركة .

ولكن القائد العام كان قد نسى اعتبارين :

أولهما .. أنه ترك طريق الامداد وراء بيرون اسحاق مفتوحا ؛ فبدأت النجدات تتدفق على المستعمرة اليائسة .

والاعتبار الثانى .. أن الشمس تغرب آخر النهار ويهبط الليل .. وهكذا ساد الظلام أرض المعركة ، والنجدات مازالت تتدفق من الوراء ، والقتال مازال مستمرا . وأصبح المحاربون داخل أسوار المستعمرة وكأنهم داخل مصيدة ! وبدأوا يتساقطون واحدا بعد واحد داخل أسوار المستعمرة .

ولكن هذه الأزمة داخل أسوار المستعمرة لم تكن السبب الذى من أجله دعيت سرية ثالثة من كتيبتنا الى غزة . كان السبب أشد خطورة ، وأشد مرارة فى نفس الوقت .. كان القائد العام قد ألقى فى معركته ضد نجبا بقوات الكتيبة الثالثة ؛ التى كانت تحرس مدينة غزة نفسها . وكان القائد العام يقدر أن تفرغ المعركة قبل الليل ، وتعود الكتيبة الى مواقع الحراسة حول المدينة قبل أن يهبط الظلام ، ولكن المعركة لم تسر على هواه .. وجاء الليل والكتيبة الثالثة مبعثرة ؛ نصفها داخل المستعمرة فى المصيدة ، والنصف الثانى خارجها يتميز غيظا ،

أما غزة نفسها فكانت دون حراسة فى الليل . وكانت السرية المطلوبة منا سوف تكلف بالحراسة، واحتلال المواقع الدفاعية التى تحمى غزة ؛ حتى لا يجئ العدو بالليل ويتمشى الى داخل المدينة فى نزهة تحت نجوم السماء المتلألئة !

كتيبة من غير جنود !

وسمعت ليلتها أخبار راديو القاهرة ، وكان بينها أن مجلس الأمن عاد مرة أخرى فأوقف القتال فى فلسطين ، وأن وقف القتال سوف يبدأ فى الساعة الخامسة من بعد ظهر الغد .

وتوقعت أن يعود العدو فيكرر الليلة والغد نفس الذى حاول أن يصنعه من قبل ، حين صدرت أوامر وقف القتال فى المرة الأولى .. سوف يحاول العدو أن يحتل مواقع حاكمة فى الساعات الأخيرة لكى يحتشد وراءها ويستعد ، ويعود ليضربنا عندما يستريح .

وعرفت أن العدو لم يخيب ظنى فيه ، فقد طلب الينا أن نبعث بسرية من سرايانا لكى تساعد فى المعركة التى هجم فيها العدو ؛ ليحاول أن يقطع الطريق بين عراق سويدان والمجدل ، عند نقطة كراتيا .

وكنت أتابع هذه الأخبار كلها ، وأنا قابع فى أطلال المعسكر البريطانى المهجور ، الذى ترك بلا نوافذ وبلا أبواب . لم يكن عندى ما أصنعه غير أن أتابع ؛ فقد كنت أركان حرب كتيبة من غير كتيبة ، كانت سرايانا كلها معارة للكتائب الأخرى ، وكنا .. رياسة الكتيبة ، وحدنا فى المعسكر المهجور !

الساعة الخامسة

ووقفت أمام المعسكر المهجور عصر اليوم ، الذى كان يجب أن يقف فيه القتال .. وقفت والخواطر تزحم رأسى . هدنة أخرى تصدر بها الأوامر من نيويورك ونطيع .. أهى حرب حقيقية ، أم هل لعبة شطرنج؟ إنى لا أشك فى الذى سوف يحدث .. سوف نعود فنشهد صورة للذى شهدناه من قبل ..

سوف نذعن للسلام .. ولكن العدو لن يذعن للسلام ، سوف يدعم مواقعه ، ويحشد قواته ، ويعطيها فرصة لتستريح ، ثم يضربنا حين يشاء ، ويضرب معنا قرار وقف القتال الصادر من نيويورك .

وبدأت الساعة تقرب من الخامسة .. وبدأت أصيغ السمع فى اتجاهات الأفق المفتوحة ، وكأنى أريد أن أتسمع الى المدافع ، وأشعر بها عندما تلتزم الصمت حين يصل عقرب الساعة الى تمام الخامسة .

ووصل عقرب الساعة الى الخامسة .. وبدأ يمشى بعدها .. لقد بدأت الهدنة .. بدأ السلام الذى لا يعرف أحد كيف ينتهى ، وأين ينتهى ، ومتى ينتهى ؟!

وفجأة لمحت عند الأفق طائرتين عائدتين من اتجاه الشمال .. وأدركت أنهما من طائراتنا ، لابد أنهما كانتا فى دورية فوق أرض العدو ، ثم عادتا مع موعد وقف القتال فى الساعة الخامسة تماما .. احتراما لقرار الهدنة .

ومضيت أرقب الطائرتين تتقدمان فوق مواقعنا على ارتفاع بسيط ؛ متجهتين الى قاعدتهما دون شك. وأحسست بحنان غريب نحو زملائنا فى السلاح ، المحاربين من الجو ، ومضيت وعيناى على الطائرتين أرقبهما وهما تسيران فى الهواء كأنهما – فى تلك الساعة من العصر – تعبران بحرا من الضياء الباهر .

وفجأة لا أدرى من أين ظهرت ثلاث طائرات تحلق على ارتفاع شاهق ، وتدير نفسها لكى تنحدر متحكمة فى الطائرتين السائرتين على ارتفاع قليل . وأدركت فورا معنى الذى حدث ..

هذه ثلاث من طائرات العدو ، وها هى أمام عينى بعد موعد وقف القتال تنقض على اثنتين من طائراتنا ، احترمتا الهدنة وعادتا الى خطوطنا مع الخامسة بعد الظهر .

وبدأت أصرخ كالمجنون ، وكأنى أتصور أن صراخى وتحذيرى سوف يصل الى طائرتينا اللتين تشعران بالخطر . ويبدو أخيرا أن طيارينا أحسوا بالخطر ؛ فإن السرعة بدأت تزيد ، وبدأ ما فهمته على أنه مناورة للدوران والافلات الى اتجاه البحر . ولكن المفاجأة كانت كاملة .. وبرقت النار فى السماء شاحبة فى ضياء العصر الباهر ، وسمعت دوى الرصاص .

وفى أسرع من لمح البصر .. كانت احدى طائراتنا تهوى محترقة الى الأرض ، وكانت الثانية قد أفلتت الى اتجاه البحر . وأحسست أنى أفقد صوابى .. وأنى أهذى .. وأنى أريد أن أنفجر . ولم يلبث ضابط مخابرات كتيبتنا أن خرج الى موقع سقوط الطائرة ثم عاد يؤكد لنا مصرع طيارها . وكنت أعرفه ، فقد كان طيارا شابا حديث العهد بالمعارك ، وكانت تلك أول عملية له فى فلسطين ! وكان الذى يؤلمنى أن الفرصة لم تتح له لكى يقاتل دفاعا عن حياته .. لقد قتل غيلة وغدرا . كان عائدا مطمئنا الى القرار الذى صدر فى نيويورك ، وطلبت منه قيادته أن يحترمه ، فانقض عليه الذين طلبت منهم قيادتهم أن لا يحترموا شيئا . لم يكن الذى رأيته من مكانى ، وبصرى معلق فى السماء ، معركة ، انما كان جريمة قتل غادرة !

واستلقيت ليلتها فى غرفتى فى أطلال المعسكر البريطانى المهجور .. غرفتى التى لا سقف لها ، والنجوم تطل على من أبراجها ، وكان فى رأسى خاطر واحد :

سوف نلقى جميعا نفس المصير الذى رأيت هذا الطيار الشاب الصديق يلاقيه ؛ مادام حال الذين يوجهوننا من القاهرة ومن قيادتنا العامة فى الميدان هو هذا الحال ، فلن يتاح لواحد منا أن يحارب فى معركة شريفة متكافئة مع عدوه دفاعا عن حياته وشرف بلاده .. لن تتاح لنا هذه الفرصة أبدا .. ليس أمامنا الا أن نقتل هكذا .. غيلة وغدرا !

ومضت علينا أيام الهدنة الجديدة كما مضت قبلها أيام الهدنة الأولى .. كأننا ما فعلنا شيئا ! كأنما الدماء التى سالت ، كأنما الجهود التى بذلت ، كأنما الأرواح التى أعطيت فى سخاء ، كأنما السهر الطويل المستمر ، كأن أهوال المعارك فى الليل والنهار .. كأنها جميعا لم تكن !

عدنا الى الانتظار الذى ليس له حد نعرفه نحن ، وإن كان يبدو أن العدو يعرف منه كل حد ؛ يعرف أين يبدأ ويعرف أين ينتهى ، ويعرف أين يستفيد بين البداية والنهاية .. قوة لنفسه ، قوة علينا .

ولقد كان فى الخنادق هذه المرة – على أى حال – شعور جديد .. شعور بالمرارة .

لقد حاربنا فترة ما بين الهدنتين بكل طاقة فى أجسادنا العارية من الدروع ، ومع ذلك لم نكد نمضى فى الحرب ، ويعلو ضجيج المعركة على صوت الهمسات التى كانت تتردد فى خنادقنا عن الحرب السياسية ؛ حتى جاءت السياسة مرة ثانية فأوقفت القتال طاعة لمجلس الأمن فى نيويورك .

اذن ماذا فعلنا ؟

فيم كانت كل هذه التضحيات ؟

والى أين ينتهى بنا المطاف ؟

هل سنحارب ؟ هل سنهادن ؟ أم هل كتب علينا جميعا نفس مصير الطيار الذى لقى مصرعه أمام عينى بعد نصف ساعة من الهدنة ؛ فنقتل جميعا غيلة وغدرا ، ودون ما فرصة ندافع فيها عن الوطن والشرف والحياة ؟!

لم يكن هناك من يستطيع أن يجيب على هذا كله .. وكانت المرارة المكتومة ، والغيظ المكبوت ، يرزحان على خنادقنا ؛ اجابة خالصة لكل من يريد جوابا على أى سؤال !

وبدأت أشعر بالملل فى مكانى فى أنقاض المعسكر المهجور الذى لا سقف له ولا نوافذ ، والذى كنا مانزال ننتظر فيه . وما من شك أن هذا الشعور بالملل لم يحاصرنى وحدى ، وانما ضم معى أيضا كل زملائنا فى السلاح . ولقد حاولنا جهد المستطاع أن نسرى على أنفسنا ، ونفلسف الظروف التى نعيش فى أسارها .

كنا ننزل أحيانا الى المدن القريبة منا ؛ الى المجدل ، والى غزة ، وكنا نحاول الاتصال بأصدقائنا ، ونترقب أن نلتقى بهم . وكنا من مركز رياسة كتيبتنا نقضى الليل أحيانا تحت السماء الصافية تلمع نجومها ، ونستدعى جنديا من كتيبتنا كان أصله بائع مثلجات فى القاهرة ، ونتركه يسترسل فى أغانيه الريفية ؛ التى كانت تنفذ الى قلوبنا حاملة معها حنينا غريبا الى الوطن ولهفة عليه .

الذين لم ينسونا فى الوطن

وقدر لى أن أعود الى الوطن فى اجازة قصيرة بعد أيام .. وفجعتنى القاهرة حين ألقيت عليها أول نظرة وأنا عائد من ميدان القتال .

لم تكن عاصمة بلد يحارب فى معركة حياة أو موت ، كان كل شئ فيها كما تعودت أن أراه ؛ سلاما هادئا .. يكاد يغفى من النعاس فى بعض الأحيان . وأحسست بانقباض غريب فى العاصمة المائجة بالحياة العادية ، بينما احدى سيارات التاكسى تقطع بى الطريق من ميدان المحطة الى منزلى .

وحين اقتربت من بيتى أحسست ببعض العزاء ؛ فقد شعرت أن هناك بين أفراد الشعب العادى من يحس بالذى نصنعه فى فلسطين .. رفض سائق التاكسى أن يأخذ الأجر الذى حسبه العداد ، وحاولت بشتى فنون المنطق أن أقنعه ، ولكن الرجل تمسك بمنطقه الساذج الطيب . لقد كنت فى رأيه – كما لاحظ ورأى – عائدا من ميدان القتال ، فهل يجوز له أن يتقاضى منى أجر الركوب ؟ إن السيارة لم تكن ملكه ، ولكن ماذا يهم ؟ ذلك فى منطقه مسألة ثانوية .

واقتربت أدخل من باب البيت بعد المناقشة الطويلة مع سائق التاكسى ، واذا العمال فى بعض الورش والمحال القريبة من بيتنا يلمحوننى وأنا فى الطريق اليه ، وكنت دائما على علاقة طيبة بهم ، ويبدو أنهم افتقدوا

غيبتى الطويلة فى ميدان القتال ، ومن يدرى .. فقد يكون بينهم من ظن أنى لن أعود أبدا ، وأشفق على من المصير الذى قدر لى أن ألقاه .

وهكذا هرع الى جمع منهم ؛ بعضهم يسلم ، وبعضهم يصفق أو يقول كلمة تشجيع بسيطة فى معناها ولكنها صادرة من القلب .

وكانت أيام الأجازة الأربعة مشحونة .. اتصلت بأصدقائى الذين كانوا فى العاصمة ، وبينهم عبد الحكيم عامر الذى كان قد عاد ليدخل المستشفى ؛ كى تجرى له عملية جراحية فى احدى يديه بعد اصابتها بشظية ، وتلوثت الاصابة فى ميدان القتال ، والتقيت بحسن ابراهيم . ومررت على رئاسة الجيش أتتسم الأخبار ، وسمعت روايات عن معدات جديدة فى طريقها الينا .. ولقد صدقت أمانى ما سمعت ، ولكن عقلى.. والتجربة الحقيقية فى الميدان .. كذبا ، وأصرا على التكذيب !

العودة الى الميدان

وفى أول يوم العيد .. كان لابد أن تنتهى اجازتى .. وذهبت فى الصباح مع ابنتى هدى الى حديقة الحيوان ، ثم عدنا الى البيت لكى أحزم أمتعتى وأقول لأسرتى مرة ثانية : وداعا .. ثم أستقل القطار فى اتجاه جبهة القتال ، وأعود الى الميدان الذى كنت قد تركته منذ أربعة أيام .

ولم يكن هناك شئ قد تغير فيه .. كان تماما كما تركته .. سلم وسط الحرب ، وحرب وسط السلام. وبين السلام الضائع والحرب الضائعة ، كانت خنادقنا تعيش فى حيرة خطيرة ، أخطر عليها من العدو الذى تحاربه .

وعدت الى أطلال المعسكر المهجور .. وعدت الى النجوم المتلألئة أنام تحتها كل ليلة فى غرفتى التى لا سقف لها ، وأقضى الساعات أتأملها فى ارتفاعها الشاهق فوقى ، وأسرح بأحلامى بين أفلاكها .

ومرت الأيام ..

وفى صباح الخميس ٩ سبتمبر دعينا الى مؤتمر فى رئاسة القوات ، وهناك علمنا أن كتيبتنا سوف تتسلم خطا جديدا .. هو الخط بين عراق المنشية وبيت جبرين . وسبقت كتيبتى الى الخط الجديد ، وبدأت سرايانا تصل الى مواقعها واحدة بعد أخرى . وكان القدر يدخر لنا مفاجآت .. بعضها وراء بعض ..

فى المواقع الجديدة

وبدأت استكشف المنطقة حولى لكى أعرف أين أنا ، وبالتالى لكى أستعد اذا ما جاء العدو . كانت عراق المنشية قرية صغيرة تضيق بمن فيها من سكان ومن لاجئين ؛ كان تعداد الجميع يتراوح بين ١٨٠٠ شخص و ٢٠٠٠ شخص . وكانت على الطريق الرئيسى الذى يفصل الشمال عن النقب الجنوبى ، ويمتد من المجدل حتى الخليل .

وكانت مستعمرات العدو تحيط بها من كل جانب .. على بعد كيلو مترين اثنين الى الأمام منها كانت تقع مستعمرة جات ، وفى جنوبها مستعمرات رحامة وجمامه . وفى شمالها مجموعات أخرى من المستعمرات ، فى أرض يحتلها العدو ويسيطر عليها كلها .

وكانت حولنا مجموعة من القرى العربية تقع داخل النطاق الذى فرضت علينا حمايته ، وكان هذا النطاق يمتد الى ثلاثين كيلو مترا . وعندما وزعت كتيبتنا على النطاق الذى يجب أن تحميه ، وجدت أن المأساة القديمة قد عادت فكررت نفسها من جديد . لقد فرض على قوات كتيبتنا أن تبعثر على مناطق منعزلة، وعليها فى هذه البعثرة أن تدافع عن القرى الواقعة فى نطاقها ، وتدافع بالطبع عن نفسها .

الحظ معنا

وبدأ النشاط يدب فى قطاعنا ..

وذات صباح تلقيت اشارة من الحاكم الادارى المصرى لبيت جبرين يقول فيها : إن العدو احتل خربة المحجز ، وإن قواته بدأت تحفر خنادقها وتحصن مواقعها الجديدة .

وقال لى الحاكم الادارى : إنه مع عدد من المتطوعين يناوشون العدو ويعرقلون جهوده ، ولكنهم فى حاجة شديدة الى النجدة .

وبعثت التفاصيل الى رياسة اللواء ، وأرسلت فى الوقت نفسه أحد ضباطنا لكى يرى الأمر بنفسه ، ويعود لنا بصورة واضحة للحالة هناك .

وعند الظهر كانت رياسة اللواء الرابع تأمر كتيبتنا بطرد العدو من خربة المحجز ، وكان الضابط الذى أرسلته طلبا للمعلومات قد حقق مهمته وعاد .

وخرجت من عراق المنشية فى طريقى الى المهمة التى كلفنا بها .. كانت معى فصيلتان من المشاة ، أى ما يقرب من سبعين جنديا . وكانت معى سيارتان مدرعتان ، وست حمالات ، وواحدة من جماعات الفيكرز ، ومرة أخرى وجدتنى فى سباق مع الزمن .

ولكننا استطعنا على أى حال أن نبدأ الهجوم على المحجز فى الساعة الرابعة بعد الظهر . وكانت الخطة التى وضعتها ؛ أن تتقدم الحمالات من يمين المحجز ، وأن يتقدم المشاة من الشمال .

وبدأت أضع يدى على قلبى ؛ فإن الحمالات بعثت الى برسالة تقول فيها : إن خورا واسعا – مجرى مائيا جافا – يعترض طريقها ، ولا تستطيع عبوره الى الهدف . ولكن فصيلة الحمالات حققت أملى فيها وزيادة ، فقد تلقيت منها اشارة فى الخامسة والنصف بأنها وجدت طريقا ، وأنها ماضية الى الهدف .

وبعد ربع ساعة أبلغنى قائد فصيلة الحمالات أنه وسط الهدف ؛ أنه دخل المحجز ، وأنه مشتبك مع العدو فيها . وتقدمت المشاة فى نفس الوقت ، ومعها جماعات من المتطوعين العرب ؛ فلم تجئ الساعة السادسة والربع حتى كانت العملية قد انتهت ، وكان قتلى العدو يملأون أرض المعركة .

والغريب .. الذى مازلت أعجب له حتى الآن ، أن الحظ حالفنا فلم تكن بين قواتنا خسائر على الاطلاق . وأبلغنا التفاصيل الى رئاسة اللواء الرابع ؛ فصدرت الينا الأوامر بأن نسلم المحجز الى قوات المتطوعين العرب ، ونعود نحن الى مواقعنا فى عراق المنشية .

وكانت قواتنا العائدة فى الليل تبدو وكأن لها أجنحة تطير بها من شدة الفرح . كانت روحنا المعنوية عالية ، وكانت حماسة جنودنا بالغة ، وكان الطريق جميلا .. ولعلنى لم أره أبدا رغم الظلام بمثل هذه الدرجة من الجمال .

ولكن سعادتى لم يقدر لها أن تستمتع بالحياة أكثر من ليلتين ؛ فقد كانت أول اشارة تلقيتها فى صباح اليوم التالى أن العدو عاد فهجم على المحجز ، وأن المتطوعين الذين كان عليهم حمايتها انسحبوا فى الفجر تحت نيران العدو . ووجدت بعد هذه الاشارة أمرا انذاريا من رئاسة اللواء ؛ بأن نستعد للاستيلاء على المحجز مرة أخرى .

وبدأت أضرب كفا بكف .. لقد خضنا معركة منتصرة لاستردادها من العدو ، ومع ذلك فرطنا فيها بسهولة ، وعادوا الآن يقولون لنا : اذهبوا فخذوها مرة جديدة ! وفى هذه الأثناء كانت هناك اشارات طائرة ذاهبة قادمة ، تلقى المسئولية مرة على رئاسة اللواء الرابع وأوامرها ، ومرة على المتطوعين العرب .

وفى الساعة الواحدة ظهرا ألغى الأمر الانذارى . وعلى أى حال فإنى لم أكن قد توقفت عن مد المتطوعين العرب بالسلاح والذخيرة ، ولا عن تحريضهم لكى يذهبوا ويحاولوا بأى طريق أن يمنعوا العدو من تحصين مواقعه .

وكنت أقول لنفسى :

– لن يذهب هذا عبثا على أى حال ؛ اذا لم أذهب أنا الى المحجز فسوف يذهب غيرى من زملائنا ، ولسوف تتردد قيادتنا بعض الوقت ثم تحزم أمرها أخيرا ، وتصدر الى واحد ما أمرا باسترداد المحجز ، واذا كان فى وسعى أن أساعد هذا الواحد فى عمله ، فإنه لا ينبغى علينا أن نتردد .

ولم ألبث أن علمت بعد ذلك بقليل أن الكتيبة الأولى فى الفالوجا قد كلفت باسترداد المحجز ، وأن الأوامر قد صدرت الى زكريا محيى الدين بأن يقود الهجوم .

المرة التى شعرت فيها بالخوف

واتصلت بزكريا محيى الدين أطلب منه أن أخرج معه الى العملية . وكانت فكرتى أنى أعرف طبيعة الأرض ، وأنى عملت فيها الى ساعات قليلة مضت .

وعندما وصلنا الى منتصف الطريق الى المحجز ، وجدنا أن خير ما نفعله هو أن نؤجل الهجوم الى الصباح ، ونبدأه مع خيوط الفجر الأولى . ونمنا فى الخلاء ؛ زكريا محيى الدين وأنا .. فوقنا بطانية ، وتحتنا بطانية أخرى .. وبيننا أحاديث لا تنقطع عن العدو وعن قيادتنا .. وعن العاصمة أيضا !

وبدأت المعركة فى الصباح ، واقترحت على زكريا أن يستعين بفصيلة الحمالات من الكتيبة السادسة، وهى التى قادها الجاويش عبد الفتاح ودخل بها الى وسط العدو منذ يومين . ووافق زكريا .. واتصلت بكتيبتنا أطلب منهم أن يبعثوا الى بعبد الفتاح . وبعد ساعة واحدة كان الجاويش عبد الفتاح داخل المحجز ؛ يبعث الى باشارة يقول فيها : إنه دخل القرية ، ويطلب المشاة للتعزيز .

ولم أطق صبرا ..

ركبت احدى الحمالات وأسرعت بنفسى الى المحجز . وكانت القرية حين دخلتها جحيما من النار ؛ فإن العدو المحنق المنسحب كان قد صب عليها كل ما استطاعت مدافعه أن تسعه من قنابل . وأعترف أنى شعرت بالخوف مرة واحدة فى حياتى .. وكانت فى تلك الساعة فى المحجز ..

ولست أدرى ماذا حدث لى حتى شردت عن المعركة الى أسرتى فى القاهرة .. واذا أنا لمدة ثلاث دقائق أفقد روح المحارب واندفاعه . ومن حسن حظى أن هذا الشعور فارقنى بعد ثلاث دقائق ، وعدت الى شعور اللامبالاة ؛ الذى هو أكبر عدة المحارب .

إن الحرص على الحياة .. وتلك تجربتى فى ميدان القتال ، أكثر ما يسلب المحارب روح القتال ، وإن الاندفاع الى النصر .. كامن فى اللامبالاة بالنفس ، ونسيان كل شئ عنها ، ومراعاة المعركة وحدها !

نظرة صاعقة !

ولم يكن هناك ما أفعله بعدها ، وأنا مشترك فى المعركة بطريقة غير رسمية ، الا أن أعود .. ولقيت زكريا فى طريق عودتى ، وتمنيت له حظا سعيدا ، وكان هو فى طريقه الى المحجز .

ولم أكد أمضى بعيدا على أى حال ، حتى جاء من يبلغنى أن العدو كر مرة أخرى فدخل المحجز . وقررت أن أتمهل فى العودة ، وفى ظنى أن أطمئن على زكريا ؛ فقد تركته لآخر مرة متقدما الى المحجز .. وها هو العدو يعود اليها .

وعلمت بعد قليل .. أن زكريا سمع بسقوط المحجز مرة أخرى فى يد العدو قبل أن يصل اليها ، وأنه عاد فى انتظار أوامر جديدة . ولكن الأوامر الجديدة تأخرت ثلاثة أيام .. كانت أغلى من الحياة فى يد العدو الذى جعل من القرية حصنا منيعا . وحين صدرت الأوامر بهجوم جديد عليها ، كان قائد اللواء نفسه هو الذى سيقود الهجوم .

وحشد قائد اللواء مجموعات هائلة من القوات ، وقلت مرة لقائد مدرعاته :

– هل تريدون أن أجئ معكم ؟ لقد ذهبت كتيبتنا الى المحجز قبل ذلك ، واستولت عليها مرتين .

ولم يجب الرجل .. بل اكتفى بأن رمقنى بنظرة صاعقة مشحونة بالكبرياء ، ومضى فى طريقه .. ولكن ليس الى المحجز ، فإن الهجوم الجديد لم يقدر له النجاح بسبب الأيام الثلاثة الضائعة على الأقل ! وكنت أتابع تطوراته من مواقعنا فى عراق المنشية .. وأنا أقرض أسنانى من الغيظ !

ماذا أعددنا

وجاء العيد الكبير ..

وصباح يوم العيد تلقينا اشارة من رئاسة القوات تقول : إن العدو سوف ينتهز فرصة العيد ويقوم بهجوم على مواقعنا .

ويظهر أن قيادتنا العامة لم تفعل أكثر من أنها بعثت الينا بهذه الرسالة ، ونسيت عنا كل شئ وانهمكت فى استقبال الأميرة السابقة فايزة .. وكان مقررا أن تزور الميدان .

لقد عرفنا أن العدو سوف ينتهز فرصة العيد ويهجم ، ولكن ماذا أعددنا له ؟ ما هى الخطة التى رسمتها قيادتنا لملاقاته !

أرسلنا الى المواقع نقول لكل جندى :

– خل بالك يا عسكرى !

ولكن ما معنى هذا ، وما قيمته ؟ وماذا كان فى استطاعتنا أن نفعل غير ذلك ؟ إن قيادتنا بعثت برسالتها التى تقول : إن العدو سيهجم على كل اللواءات ، وأبلغ اللواءات الأمر الى قواد الكتائب ، وانتقل الخبر منهم الى أركانات حرب كتائبهم ، ثم الى قواد السرايا والفصائل ، ووصل الجنود فى الخنادق الأولى على صورة ..

– خل بالك يا عسكرى !

واعتبرت قيادتنا أنها أدت واجبها وأكثر ، ونسيت أنه كان يتعين عليها أن تعد خططا مضادة لكل احتمال وتبعث بها الينا !

كل شئ هادئ

بدأت الحوادث تجرى مسرعة ..

كان اليوم هو ثالث أيام العيد .. وبدأ العدو نشاطه فى الساعة الحادية عشرة مساء .

بعثت احدى سرايانا الى الشرق تقول : إن العدو يتحرك بين عراق المنشية وبيت جبرين . وبعث قائد السرية يقول لى : إنه بعث احدى دورياته للاستكشاف ، فعادت اليه تقول : إن العدو نشط على الطريق الرئيسى ، وإنه احتل موقعا عليه ، وبدأ يحفر حوله ويقيم الأسلاك ؛ وإن ذلك معناه قطع الطريق بين عراق المنشية وبيت جبرين .

وقلت لقائد السرية أن يشتبك بالعدو ويمنعه من تحصين موقعه ، واتصلت برياسة اللواء الرابع أروى لهم ما حدث ، وكان الرد أمرا من اللواء بأن تقوم كتيبتنا برد العدو عن هذه المواقع .

وفى الساعة الثالثة صباحا كان تجهيز القوة الخارجة لرد العدو يسير على قدم وساق ، وكان مفروضا أن أخرج أنا بهذه القوة ، وكان مقررا أن نخرج مع ضوء الفجر الأول .. وكنت واقفا بنفسى أمام مركز رياسة كتيبتنا أتعجل ضوء الفجر لكى نتحرك الى هدفنا . كان كل شئ حولنا هادئا ساكنا .. حتى المستعمرة التى تواجهنا – جات – بدت وكأنها مستغرقة فى نوم عميق .

ودخلت مركز الرياسة ، وطلبت على التليفون برج المراقبة العالى ، المشرف من مواقعنا فوق الجبل على مستعمرة جات ، أسألهم عن الأحوال حول المستعمرة .. وكان الرد يؤيد ما أحسست به بنفسى ؛ وهو أن كل شئ هادئ .

الدبابات تظهر

واقتربت عقارب الساعة من الخامسة ، وكان لابد أن نتحرك ، ولكن فجأة انتهى الهدوء نهاية خاطفة مروعة .. بدأت النار تنهال فوق عراق المنشية بتركيز لم أشهد له مثيلا من قبل . كانت القرية كلها تحت الانفجارات المتواصلة مرة واحدة .. اذن فقد بدأت المعركة هنا ، واذن فيجب أن أبقى لأواجه هذا الهجوم .

ودخلت مركز الرياسة أحاول مواجهة المعركة . ودق التليفون فى الخامسة والنصف ، وسمعت قائد السرية المواجهة لمستعمرة جات يقول لى :

– إن العدو يتقدم .. بالدبابات ..

وصحت فيه أقول :

– بماذا ؟ بالدبابات .. هل أنت متأكد ؟

ومع أن الضابط مضى يؤكدها بشدة ، فقد تصورت – وظلمته فى تصورى – أن شدة النار هى التى جعلته يتصور وجود الدبابات ، من غير أن تكون هناك دبابات ! لم يكن العدو قد استعمل الدبابات فى فلسطين أبدا حتى اليوم ، لدرجة أن القائد العام لقواتنا فى الميدان طلب منى ، ونحن فى طريقنا الى عراق المنشية من مواقعنا القديمة فى أسدود ، أن أترك له هناك مدافعنا المضادة للدبابات من عيار ٦ رطل ، ولما حاولت أن أناقشه فى ذلك قال :

– إن العدو لا يستعمل الدبابات ، ثم إن الأرض التى ستذهب اليها لا تصلح بطبيعتها لاستعمال الدبابات .

ولقد أطعته ، ولكنى أمرت أحد جاويشية كتيبتنا أن يأخذ معه ، ومن وراء ظهر القائد العام ، مدفعين من المدافع المضادة للدبابات ، وكنت أقول فى نفسى :

– ولو لمجرد الاحتمال البعيد .

وعاد قائد السرية المواجهة للمستعمرة يقول لى : إن الدبابات تتقدم على مواقعه ، وأنها عبرت الأسلاك الشائكة .

اذن فإن الاحتمال الذى قطع قائدنا العام بعدم حدوثه ، وحاولت أنا أن أحتاط له ، قد وقع ، اذن فقد كان يجب أن تبقى معنا مدافعنا المضادة للدبابات ، ولا تسلب منا حتى يهجم العدو علينا بدباباته فنحار كيف نصده ! اذن فإن اعتمادنا اليوم كله على مدفعين اثنين أخذناهما من وراء ظهر القائد العام .

ونقلت المدافع ، أقصد المدفعين الاثنين ، الى مواجهة الدبابات القادمة .

داخل النطاق

كانت الأخبار تترى على ، وأنا فى مركز الرئاسة ، كأنها لمعات البرق المشحونة بالكهرباء . كنت أعرف الموقف أكثر من غيرى ؛ فإن الصورة كلها أمامى .. صورة قواتنا المبعثرة ، ومدافع الدبابات التى لا نملك منها الا اثنين .. الألغام التى كنا نصرخ بأعلى صوتنا طلبا لها ، ولكنها كانت تصل بكميات لا تكفى اطلاقا لاحاطة مواقعنا بنطاق محكم منها .

وأخطرت بأن دبابات العدو تقدمت .. دبابات العدو تقتحم الأسلاك .. دبابات العدو تقتحم مواقع الفصيلة الأولى .. دبابات العدو تعبر مواقعنا كلها الى البلدة نفسها .. دبابات العدو داخل البلدة .

إن الموقف قد تغير اذن ، ويجب أن أواجهه بطريقة جديدة . لقد كانت قواتنا موزعة على نطاق معين لصد العدو الهاجم علينا من الخارج ، ولكن الكارثة التى حلت هى أن العدو اخترق هذا النطاق ، وأصبح داخل عراق المنشية ؛ أى داخل النطاق الذى ندافع من حوله .

إن قلب النطاق ليست فيه مقاومة ؛ فإن المقاومة حوله تصد عنه ، اذن فإن العدو سوف يمرح فى البلدة ما شاءت له خطته ؛ لكى يمزق أوصالنا ، ويقطع أعصاب مواصلاتنا .

وسألت فى لهفة :

– أين المدفعان المضادان للدبابات ؟

وكانت المفاجأة المروعة التى صنعها لنا القدر ..

– لقد سقطت قنابل هاون فوق المدفعين مباشرة .. وعطلا ، وأصبحا غير قادرين على العمل .

وقفزت خارجا من مركز الرياسة .. يجب أن أواجه الأمر بنفسى على الطبيعة ، لم تعد تجدى الخطط ولا التنظيمات ، لقد خرج الأمر عن هذه الحدود ، ولم يعد ينقذ الموقف الا محاولة يائسة لسد الثغرة التى فتحها العدو فى نطاقات دفاعنا .

وحين غادرت مركز رياستنا ، كان العدو قد احتل مدرسة عراق المنشية القريبة من مركز الرياسة نفسه .

النار فى كل مكان

كانت البلدة فى هول مخيف .. القنابل تنفجر فى كل ناحية .. ضجيج المعركة يملأ الآفاق .. طلقات الرصاص تئز مجنونة لا تلوى على شئ . وأدرت رأسى عن مشهد مؤلم ؛ أن أحد جنودنا من سلاح الاشارة مازال يواصل عمله ويمد أسلاك التليفون التى قطعها العدو ، ويصيبه الرصاص ، ويقع ويتقدم واحد آخر من جنود الاشارة .

وكان الذى فى تصورى أن أتجه الى مركز فصيلة الحمالات والسرية السودانية المعسكرة الى الخلف ، وأن أجئ بها الى المعركة لسد الثغرة المفتوحة أمام العدو .

وأحسست أن العدو بدأ يغير مواقع ضربه .. فإن القنابل بدأت تمر من فوقى متجهة الى حيث كنت أقصد . كنت ، بمدفع التومى فى يدى ، أحاول أن أسبق القنابل التى كانت تعبر من فوقى لكى تلاقى المواقع التى أتجه اليها .

وفجأة أحسست بحافز خفى .. صوت قنبلة مختلف عن باقى الأصوات . كانت القنابل المندفعة فوق رأسى الى أهدافها تصنع فى اندفاعها صوتا خاصا ؛ بين الأزيز والفحيح السريع الخاطف . أما هذا الصوت الذى أسمعه فوقى ، فهو أشبه بخفق أجنحة الطير عندما يصيبه رصاص الصائد فيرف ويسقط على الأرض . إنى أعرف هذا الصوت .. إنه صوت سقوط القنبلة عند وصولها الى نهاية مرماها .

وألقيت نفسى بسرعة على الأرض ، فى حمى جدار منخفض متهدم ، وبعد ثانية واحدة أو ثانيتين سمعت الانفجار ، ورفعت رأسى فوجدت غبار الانفجار مازال كدوامة الهواء على الناحية الأخرى من الجدار.. اذن فقد نجوت بضربة حظ غريبة .

ولم يكن هناك مجال للتأمل أو للتفكير ؛ فقد اندفعت الى منطقة فصيلة الحمالات ، ومنطقة الشئون الادارية ، وقلت لأول ضابط وجدته هناك :

– خذ كل الجنود واطلع الى منطقة المدرسة .

وعلمت أن السرية السودانية خرجت الى المعركة قبل وصولى بقليل . وبدأ كل قادر على حمل السلاح يخرج ؛ خرج الطباخون ، وحتى سائقو السيارات .. وأقول سائقو السيارات لأنى مازلت أذكر أحدهم.. كان اسمه عزت ، وكان قلبه كالحديد ، ولم يكن يتردد أمام أى مهمة ، ولقد كان ينجو دائما بما يشبه المعجزات . ولقد لقيته أخيرا منذ شهور فى مستشفى الجيش ، وكان مريضا فى المستشفى ، وعرفته وبدأت أحدثه وأتعرف حالته ، وقال لى وعيونه فيها دموع أنه مصاب بسل فى العظام ، وقلت للطبيب الذى يعالجه :

– أما من وسيلة ؟

قال : عندنا لا ، ولكنهم قد يستطيعون عمل شئ له فى أمريكا .

وقلت : اذن يسافر الى أمريكا لكى يعالج هناك ، إنه خير عندى من مائة من هؤلاء الباشوات الذين كانت سبل السفر مفتوحة أمامهم . وإنى لآسف أن أجل عزت لم يسعفه ؛ فإنه مات بمرضه قبل أن تتم اجراءات سفره الى أمريكا ، حتى لعلاج أمراضه .

وعلى أى حال .. فلأعد للمعركة المشبوبة فى عراق المنشية .. للعدو الذى اقتحم نطاق دفاعنا .. للدبابات التى لم يقف فى طريقها شئ ؛ حطمت الأسلاك الشائكة ، واجتاحت المواقع ، وأصبحت فى قلب البلدة .. للقنابل الطائرة فوق رؤوسنا ، الواقعة فى مثل صوت رفيف الحمام المضروب فوق رؤوسنا .. لجنودنا الخارجين فى اندفاع اليائس الذى يغامر بآخر قطرة دم .. لجنود سلاح الاشارة الذين يسقطون وهم يحاولون وصل ما انقطع من الأسلاك .. للطباخين .. للسائقين الذين خرجوا بما استطاعت أن تصل اليهم أيديهم من سلاح ، وانطلقوا لملاقاة دبابات العدو التى ظهرت لأول مرة فى المعركة ، وبدا كأنها سيطرت على الموقف سيطرة كاملة .

كانت المعركة تبدو للوهلة الأولى محاولة يائسة ، ولكنى عندما التفت الآن الى الوراء ، وحين تستقر ذاكرتى على تفاصيلها العجيبة ، لا أستطيع أن أمنع نفسى من أن أقول :

– لقد كان ذلك يوما من أروع أيام حياتنا .

حين أمضى أكثر وأكثر ، أستعرض الذى حدث .. منذ ظهرت دبابات العدو لأول مرة تهدر فى الطريق الى مواقعنا .. ومنذ اكتسحت هذه الدبابات مواقعنا واخترقت نطاق الدفاعات المعدة .. حولها .. ومنذ اقتحمت هذه الدبابات طريقا لنفسها ، حتى وصلت الى قلب عراق المنشية .. ومنذ خرجت من مبنى الرياسة ؛ حيث لم يعد يجدى تنظيم ، لكى أدفع كل رجل قادر على حمل السلاح الى أن يحاول بجسده أن يوقف تقدم الدبابات .. حين أستعرض هذا الذى حدث بكل دقائقه ، ثم أتذكر كيف تطور هذا الموقف فى ساعة واحدة ، أعود فأقول :

– كان الله قائدنا فى هذه المعركة .

ثلاث دبابات

كان كل شئ يتطور بسرعة غير معقولة .. كانت فصيلة الحمالات قد تقدمت الى وسط حقل مزروع بالتين الشوكى ، وكانت مدافع البيات الصغيرة ؛ التى تستطيع مقاومة الدبابات من مسافة قريبة ، جاهزة فى أيديهم ، وكانوا فى انتظار من يصدر اليهم أمرا .

وكانت الأوامر التى بعثت بها اليهم مع أحد الضباط .. أن يتقدموا ليقفلوا الثغرة التى فتحها العدو فى خطوطنا ، وتسرب منها الى داخل نطاق دفاعنا . وكان الهجوم متجها اليهم ، وكانت كل الأصول والقواعد تفرض عليهم أن يعودوا الى الوراء ، ومع ذلك فإنى حين طلبت الى الباشجاويش أن يتقدم ويصمد لم أجد الا حماسة منطلقة لا تلوى على شئ .

وتسلل واحد منهم وسط التين الشوكى ، وفى يده مدفع البيات ، وعلى أعصابه تصميم فى متانة الصلب ، وظل ينتظر دبابة العدو حتى أصبحت على بعد عشرة أمتار منه ، ثم أطلق عليها مدفعه ؛ واذا الطلقة تصطدمها مباشرة وتمزقها فى لمح البصر .

وفى نفس الوقت .. كان ضابط الفصيلة التى اكتسحها العدو ومر فوق مواقعها ، يمسك مدفع بيات آخر يصوبه ويطلقه من بعد أمتار قليلة ؛ فاذا دبابة ثانية تنفجر وتتمزق .

ومضت ارادة الله التى تدير معركتنا تواصل عملها المقدس ، فاذا احدى الدبابات ، دبابة ثالثة ، تنفجر ، واذا بها قد مست لغما من الألغام التى كنا زرعناها على الأرض ، وما كان أقلها حول مواقعنا .

وهكذا بسرعة لم يقدرها أحد تعطلت ثلاث من دبابات العدو الست المتقدمة ، وأحس باقى القطيع من الدبابات أن الأمر يتطور على غير ما كان متوقعا ؛ فاذا هى تدير نفسها وتعود مضطربة الى حيث أتت .

بندقية جديدة

ولم أكن أستطيع من مكانى أن أتابع الذى يجرى كله فى نفس الوقت . كانت هناك دقائق من الفوضى والغموض هى دائما من مستلزمات المعارك اليائسة ، ولكنى بدأت أحس أن الموقف فى كل ناحية قد تغير .

بدأت مدافع العدو تدق مواقعنا .. وكانت لذلك دلالة هامة .. معناها أن العدو سحب جنوده من حيث كانوا استطاعوا التقدم الى خطوطنا ، والا لما كان استعمل المدفعية لكى يصيبنا ويصيب جنوده معنا ..

ثم مر من أمامى ، وأنا واقف والقنابل تنشر مظلة مروعة فوق عراق المنشية ، جندى يحمل بندقية جديدة . ولمحت البندقية ، وناديته أسأله من أين جاء بها :

وقال بسذاجة مرحة تلعلع الفرحة فى نبراته :

– من اليهود يا افندى !

ثم بدأت التفاصيل تتجمع بين يدى .. لقد انتصرنا على العدو ، على الأقل صمدنا أمام هجوم بدأ ساحقا للوهلة الأولى ؛ لدرجة أن مواقعنا ديست بدبابات العدو ، ثم استطاع جنودنا أن يستردوا الأرض التى فقدناها ، ويردوا دبابات العدو على أعقابها بعد ضياع نصف عددها تماما وتعطله .

وكان خير دليل على غيظ العدو وجنونه مما حدث .. هذا الضرب المركز بالمدفعية على عراق المنشية .. كان ضربا حاقدا مفلوت الأعصاب .

الجرى وراء نيشان

وعدت الى مركز الرياسة .. كنت قد غادرته منذ ساعة والهزيمة تكاد تهوى فوق رؤوسنا ، وهأنذا أعود اليه بعد ساعة عشنا فيها نصرا أشبه بمعجزات السماء ! ولقد كنت أدرك أن الأمر لن يبقى طويلا على هذا الوضع ، كان لابد للعدو أن يعاود الكرة ، لسوف يدركنا بمدافعه كما يشاء له جنونه ، وبعدها يعود الى الهجوم علينا حين يدرك أن قنابله حطمت مراكزنا وأرواحنا أيضا .

ولم يكن عندى وقت أضيعه .. وأبلغت ما حدث بالتفصيل الى قيادة اللواء ، وطلبت بأسرع ما يمكن أى عدد من المدافع المضادة للدبابات .

ولقد كنت أدرك أنى أطلب مخاطرة ؛ فإن الطريق المؤدى الينا يضربه العدو ويسيطر عليه عند كراتيا ، ومعنى ذلك أن القوة التى ستأتينى بالمدافع سوف تعرض نفسها لخطر كبير . ومع ذلك فإن ضابطا شابا باسلا قام بثلاث سيارات وأربعة مدافع وملأ سيارتين منها بذخيرة الهاون ، واستطاع أن يصل الينا تحت النار . وطلبت له نيشانا حتى نشعره بتقديرنا لعمله ، وظللت بعد الحصار أجرى وراء النيشان حتى حصل عليه صاحبه أخيرا !

أين عثرنا عليهم ؟

وأعدت تنظيم صفوفنا على الوضع الجديد .. وضعت ثلاثة مدافع مضادة للدبابات عند المنطقة التى هجم منها العدو ، وكنت أتوقع أن يعود منها اذا كرر الهجوم ؛ فقد تصورت أن العدو سيعتقد أننا سنحتاط له فى كل مكان الا المكان الذى هاجم منه فعلا ولم ينجح .

وفى الساعة العاشرة صباحا .. بدأ العدو هجومه الثانى . وتقدمت ست دبابات .. تقدمت فى اطمئنان وهدوء وثقة أننا لا نملك مدافع مضادة للدبابات ، والا كنا استعملناها فى الهجوم الأول .

وظلت مدافعنا المضادة للدبابات ملازمة للصمت ، بينما مدافع الهاون وحدها هى التى تطلق النار من خطوطنا . ثم جاء الوقت الذى كان يجب أن تثبت فيه مدافعنا المضادة للدبابات وجودها ، فقد اقتربت الدبابات من الأسلاك حول مواقعنا . وضربت المدافع الثلاثة فى نفس واحد .. وأصيبت دبابتان من دبابات العدو ، واستدارت بقية الدبابات عائدة وقد أذهلتها المفاجأة .

وحاولت دبابات العدو مرة أخرى عند العصر أن تتقدم ، ولكن النار القوية التى واجهتها جعلتها تقنع بالعودة دون اشتباك . وهكذا حين جاءت الساعة الخامسة مساء كانت الروح المعنوية فى كتيبتنا أعلى وأقوى مما كانت فى أى يوم من الأيام .

وخرجت أمر على جنودنا .. كانت الثقة بالنفس تطل من عيونهم ، وكان التصميم الأكيد يطبع كل حركاتهم . وكنت سعيدا وفخورا ، والشئ الوحيد الذى كان يضايقنى أن كثيرا من زملائنا فى السلاح ، من الجنود والضباط ، قد سقطوا على أرض المعركة ، وكانت الأرض التى سقط عليها بعضهم تروى قصصا عجيبة عن الشجاعة والفداء .

لقدعثرت احدى دورياتنا التى خرجت فى الليل على جثث بعض السواقين والطباخين الذين انطلقوا للمعركة اليائسة .. عثرت عليها بعد الأسلاك الشائكة التى تحمى مواقعنا ؛ وكان معنى ذلك أن هؤلاء الجنود الأشداء لم يكتفوا بأن يردوا العدو ، بل خرجوا لمطاردته على الأرض الحرام بين خطوطنا وخطوطه .

ماذا حدث ؟

وجلست تلك الليلة فى مركز رياسة كتيبتنا أحاول أن أتصور الموقف كله .. لقد كان الذى لا يقبل الشك فى تصورى ، أن هجوم العدو علينا فى عراق المنشية جزء من خطة عامة ، ولقد فشل العدو أمام مواقعنا ، فماذا جرى لخطته العامة ؟ وهل سيحاول تنفيذها فى مكان آخر ؟

ولو كانت لى القدرة على الرؤية البعيدة يومها ، لعلمت أن ما كنت أتصوره لم يبتعد كثيرا عن الحقيقة .. كانت للعدو فعلا ، كما أثبتت التطورات بعد ذلك ، خطة عامة ، وكانت هذه الخطة مبنية فى مرحلتها الأولى على اختراق مواقعنا . فلما فشل العدو فى محاولته معنا ، لجأ الى طريق آخر ؛ فهجم على تقاطع الطرق عند عراق سويدان .

ومرة أخرى .. لو كانت لى القدرة على الرؤية البعيدة ، لكنت رأيت الكولونيل ييجال الون ، الذى كان يقود قوات العدو فى معارك النقب ، وهو يخطب فى جنوده لكى يشجعهم ، ثم يخرج بهم الى معركة تقاطع الطرق . وهناك ، ولسوء الحظ ، يلتقى قائد العدو مع النصر !

ولقد تلقيت سقوط موقع الطرق عند عراق سويدان بدهشة .. لقد كنت أدرك أن الموقع بالغ الأهمية بالنسبة لنا ؛ فإن سقوطه معناه عزل قواتنا على القطاع الممتد من عراق سويدان الى الخليل عن مجموعة الجيش الرئيسية العاملة على الخط الساحلى بين غزة وأسدود ، وكنت أعرف أن قواتنا فى هذا الموقع هائلة . ولست أذيع سرا اذا قلت الآن : إن اثنى عشر مدفعا من مدافع الفيكرز كانت تحمى هذا الموقع .

ولقد صدقت الكارثة بعد أن علمت التفاصيل ! ولقد كان يجب أن تحل بنا هذه الكارثة ، ولم يكن معقولا أن يكون نصيبنا غيرها ؛ ازاء الحال التى كانت الأمور عليها هناك . كان هذا الموقع فى حماية الكتيبة التاسعة ، ولكن قائد الكتيبة كان فى اجازة ، وقتل قائدها الثانى فى ضربة مباشرة لقنبلة هاون ، وركب قائدها الثالث سيارة ، وانطلق بها ولم يتوقف الا فى الاسماعيلية . أما القائد الرابع فقد ترك الكتيبة وذهب الى القيادة العامة فى المجدل .

ومن سوء الحظ أن عبد الحكيم عامر ، الذى كان أركان حرب هذه الكتيبة ، كان قد نقل منها ليعمل أركان حرب للكتيبة الثانية . وأقول – وأنا واثق أن الصداقة وحدها ليست هى المنبع الذى يصدر عنه قولى – إنه لو كان عبد الحكيم عامر ما يزال أركان حرب لهذه الكتيبة ؛ لتغير مجرى المعركة ، ولما استطاع العدو ببساطة أن ينجح فى هجومه الليلى على الموقع ، ويدخله مفاجأة وغدرا .

عملية جراحية

كان الطريق بيننا وبين المجدل قد قطع بسقوط تقاطع الطرق .. وضرب العدو ضربته الثانية حين تقدم من خربة الأمير الى الطريق الرئيسى ؛ فاحتل جنوبه أيضا كما احتل شماله ، وقطعنا عن بيت جبرين .

اذن فقد أصبحنا محاصرين تماما من الشرق ومن الغرب .. وبدأت أدرك أننا على أبواب أوقات عصيبة . كان الموقف أكثر من خطير ، وكان العدو نشيطا الى حد يفوق طاقة الاحتمال .

بدأت الغارات الجوية على مواقعنا تزداد كثرة وشدة ، واختفى طيراننا تماما ولم نعد نراه . وراحت مدفعية العدو تصب الحمم فوق رؤوسنا ، لا تهدأ لحظة ولا تتركنا نهدأ .

وكان أكثر ما يضايقنى فى ما حدث .. أنه كان بين قواتنا عدد كبير من الجرحى ، وكان الذى أتمناه أن نجد طريقا نستطيع منه اخراج الجرحى الى حيث نضمن لهم العلاج ، وكان بقاؤهم بيننا يضغط على مشاعرنا ضغطا عنيفا قاسيا . وكان هناك بعض المرضى الى جانب الجرحى ، ولقد دخلت فى الصباح على صديق ؛ فاذا هو يتلوى من الألم ، واذا الفحص يثبت أنه يعانى أزمة عنيفة فى المصران الأعور ، وأنه من الضرورى أن تجرى له جراحة عاجلة والا انفجر المصران . ولكن كيف يمكن أن تجرى له العملية الجراحية؟

وخرجت ثائرا أطلب الى حمالاتنا أن تخرج لاستكشاف طريق آخر للوصول الى بيت جبرين .

أين كان ؟

وهممت فى ذلك اليوم أن أرفع جهاز اللاسلكى وأضربه فى الأرض ؛ لأمزقه وأستريح من الهراء والهذر الذى كان ينصب علينا بواسطته ؛ فلقد جاءتنا الأخبار أن مجلس الأمن عاد فأمر بوقف القتال . الآن تحرك مجلس الأمن! أين كان ، وأين كان الخطباء فيه ؟

لقد تحرك العدو يوم ١٥ أكتوبر ، ولكن مجلس الأمن أغلق عينيه وسد أذنيه وحبس لسانه . ومضت أيام ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ وفيها استطاع العدو أن يقطع خطوطنا ، واذا مجلس الأمن يفتح عينيه وأذنيه ويصدر أمرا بوقف القتال .

هى خطة مرسومة .. هى مؤامرة علينا .. هو لعب بأقدارنا ومصائرنا وأعمارنا .. هو هزل وعبث ، والنار المصوبة فوقنا ، والطرق المحاصرة حولنا لا تسمح لنا أن نشترك فيه .

مؤتمر فى الفالوجا

وفى صباح يوم الخميس ٢١ أكتوبر دعينا الى مؤتمر فى الفالوجا . وكان المؤتمر لقواد الكتائب فى المنطقة المحاصرة وأركانات حربها .

وكانت هذه الكتائب ثلاثا هى .. الكتيبة الأولى ، والكتيبة الثانية ، وكتيبتنا السادسة . ورأس لمؤتمر الأميرالاى السيد طه ، قائد الكتيبة الأولى .

وقال لنا السيد طه : إنه تلقى من رياسة القوات أمرا انذاريا بالاستعداد للانسحاب ، على أن يرتب أمره لبدء الانسحاب فى الساعة السادسة والنصف ، بعد أن يتلقى أمرا تأكيديا بالبدء فيه .

وكان من رأيى أن هذا خير ما نصنعه .. لقد كنا ثلاث كتائب هى ثلث الجيش المصرى ؛ فهل يعقل أن يبقى ثلث الجيش المصرى مستسلما للحصار فى مواقع سدت عليه من الشرق ومن الغرب ؟ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد كنت أرى بقاءنا فى هذا الخطر لم يعد له غرض . لقد كنا هنا لكى نفصل النقب الجنوبى عن الشمال ، ولقد اتصل النقب الجنوبى مع الشمال ، فلماذا بقاؤنا ؟! ومن ناحية ثالثة فقد كنت أشعر أن انسحاب ثلاث كتائب الى الخليل ، سوف يرغم العدو على توزيع قواته بينها وبين مجموعة الجيش الرئيسى على الساحل .

بدا أن كل من فى المؤتمر مقتنع بهذا الرأى الا رئيسه الأميرالاى السيد طه ، ومع ذلك فلم يسعه الا أن ينزل على الاجماع ، ويلتفت الى ليكلفنى بوضع الخطة المفصلة للانسحاب ؛ بواسطة الطريق الجانبى الذى لم ينتبه اليه العدو ، والذى بعثنا الجرحى منه الى بيت جبرين .

وانتحيت ركنا من قاعة الاجتماع أرتب الخطة ، ولم يقدر لى أن أتم وضعها ، فما لبث السيد طه أن تلقى أمرا ثانيا من رياسة القوات يقول :

" يلغى الأمر السابق بالانسحاب .. حافظوا على مواقعكم ..
أمر ايقاف القتال صادر لمصلحتنا " !

المجهول حولنا

وكان ايقاف ضرب النار طبقا لقرار مجلس الأمن يبدأ فى الثانية من بعد ظهر يوم الجمعة ٢٢ أكتوبر .

وأوقفنا الضرب فى الموعد المحدد ، ولكن العدو لم يوقف ضربه ، ولا أوقف قواته عن احتلال المواقع التى يستكمل منها حصارنا .

وكنت فى قلبى أتمنى أن يركز العدو جهده على طريق الأسفلت الرئيسى ، وينسى الطريق الجانبى الى بيت جبرين ؛ حتى يظل منفذا مفتوحا أمامنا . ولكن الأمانى شئ والواقع شئ آخر ، فلقد طلع صباح السبت ٢٣ أكتوبر واذا العدو قد احتل الطريق الجانبى وحصن مواقعه عليه ؛ ومعنى ذلك أن حصارنا قد كملت حلقاته ولم يعد خلاله منفذ .

وفى الساعة الواحدة عند الظهر تلقى السيد طه أمرا جديدا من رياسة القوات بالانسحاب الى الخليل، ولكن واأسفاه .. فإن الفرصة كانت قد أفلتت . إن طول التردد جعل الذى كان ممكنا بالأمس ، مستحيلا تمام الاستحالة فى اليوم . لقد قطع الطريق الخلفى الذى كنا نعتمد عليه . لقد كان ممكنا أن ننسحب فى سلام منذ ساعات ، ولكن الوضع الآن يحتم علينا أن نخترق حصار العدو ، ونقتحم خطوطه ونحن نحمل سلاحنا ومدافعنا ، ونتحرك على الطريق .

واضطررت عند الظهر ، وقد استبان الموقف من كل نواحيه ، أن أصدر أمرا بتخفيض المؤن اليومية للضباط والجنود الى ربع ما كانت عليه .. يجب أن نرتب أنفسنا للمجهول الغامض الذى يحيط بنا .

منشورات العدو

وقضينا ليلة عجيبة ، تحت معركة مثيرة من حرب الأعصاب .. طارت طائرات العدو على مواقعنا تلقى المنشورات ، وأمسكت أحدها أقرؤه .. كان بيانا موجها الينا على النحو التالى : " أيها الضباط والصف والعساكر باللواءين الثانى والرابع .. ومضيت أقرأ المنشور حتى آخره ودمى يغلى .. كان نصه كما يلى :

" أيها الضباط والصف والعساكر باللواءين الثانى والرابع .. هل تعلمون أنكم محاطون ؟ إن اللواء الثانى محاط وكذلك اللواء الرابع ، ولا توجد أى وسيلة للاتصال بينهما ، ولا مفر من الاحاطة !

هل تعرفون ما معنى الاحاطة ؟ إن الاحاطة معناها الفناء والموت ، وأنكم لتشعرون بذلك فى المستقبل القريب ، ولا يستطيع قوادكم أن يبروا بوعودهم الكاذبة قائلين : بأن النجدات من الرجال والمهمات والوقود ستصلكم قريبا .. كلا !

احتلت القوات الاسرائيلية بئر السبع ، بعد ما دقت قواتكم دقا وسحقتها سحقا تاما ، واذا اتكلتم على النجدات التى سيبعثها الملك عبد الله ؛ فاعلموا أنه لا ينوى الا طرد قواتكم من قواعدها فى بيت لحم والخليل .

فإنكم ترون الآن فى هذه البلدة نتائج الدعاية الكاذبة التى كنتم تصدقونها قبل ما أرسلتم من مصر ؛ وصف قوادكم وساستكم مرحلة فلسطين بأنها سهلة ، ووعدوكم بالغنائم وبالتمتع . أين الغنائم ؟ وأين التمتع ؟ فلم تجدوا هنا الا المصائب ، ولم تلاقوا الا الخسائر الفادحة ، ولن تلاقوا غير هذا فى المستقبل . وقد شاهدت عيونكم بأن اليهود يعرفون الدفاع عن وطنهم وأراضيهم ويحسنون التحارب ، فإنهم لم يحتلوا بلادا غريبة ، ولم يفتكروا – ولا يفتكرون – فى احتلال أى بلاد ليست لهم .

واذا تطلعتم بالخريطة ؛ تبين لكم أن الجيوش الاسرائيلية تحيطكم احاطة السوار بالمعصم .

وعليكم أن تختاروا .. اذا أردتم البقاء فى الحياة فاستسلموا وستعودون سالمين الى بلادكم ، واعلموا أن كذب من قال بأننا نقتل الأسرى ؛ فهذه أقبح دعاية اخترعها قوادكم الذين ينتظرون الأوسام والنياشين ، ولا يكترثون بموت المئات والألوف من جنودهم .

هل لهم النياشين ولكم الفناء ؟

قد أمر اللواء أحمد بك محمد على المواوى الجنود ، المحاطين فى بيت عفا وفى عراق السويدان ، بالقتال حتى الموت ، ولكن أين سعادة صاحب العزة الآن ؟ إنه ولى دبره تولية الجبان بعد ما أسرنا من ضباط رئاسته . وأين قائد بئر السبع ؟ قد ترك جنوده منهزمين وهرب .. فر فى التقاطع وثبت الجيش ؛ كان القائد أول الهاربين ، وكذلك فى الحليقات وغيرها من المواقع التى احتلتها قواتنا .

افتكروا قبل الموت .. اصغوا الى اخوانكم الأسرى يدعونكم للاستسلام .. انجوا بأنفسكم واستسلموا! كل من يحضر وبيده هذا المنشور ستؤمن حياته ، ويعود سالما الى بيته .

أيها الضباط اعلموا أننا سنحترم حقوق مندوبكم الذى يتقدم حامل الراية البيضاء لتجرى معه المفاوضات ، وثقوا باحترام حقوقكم العسكرية فى أديارنا .

أعلمتم .. أنذرتم " .

راية بيضاء

وفى الصباح بدأت مرحلة جديدة من حرب الأعصاب .. جاءنى أحد الجاويشية يقول : إن سيارة مدرعة من سيارات العدو واقفة على الطريق خارج مواقعنا ، رافعة راية بيضاء ، وعليها ميكروفون يصرخ بأعلى صوته : " ضابط اسرائيلى يطلب مقابلة ضابط مصرى " .

وركبت سيارة جيب وطرت الى هذا الموقع ، واذا السيارة واقفة حيث سمعت ، والراية البيضاء ترفرف فوقها ، والميكروفون مازال يصيح : " ضابط اسرائيلى يطلب مقابلة ضابط مصرى " . وقررت أن أذهب بنفسى ، وطلبت من جنودنا أن يرفعوا البوابة التى تسد الطريق أمام مواقعنا ، ثم قفزت الى سيارة الجيب كما أنا . كنت مرتديا بنطلونا عسكريا وبولوفر من الصوف الكاكى اللون . وقفز معى الى الجيب اثنان من زملائنا الضباط ، وجاء معنا جاويش يمسك مدفعا من مدافع التومى .

وانطلقت بالجيب بأقصى سرعة على الطريق فى المنطقة الحرام بيننا وبين العدو ، تجاه المدرعة التى ترفع العلم الأبيض ، وتطلب بأعلى صوتها ضابطا مصريا لكى يقابل ضابطا اسرائيليا .

الكبرياء والعنجهية !

كان الجو غريبا مثيرا ، وكانت مشاعرى وأنا منطلق بسيارة الجيب على الطريق متباينة .. ها هى احدى مدرعات العدو أمامنا تطلب واحدا منا ، وها أنا منطلق اليها لأقابل أحد الضباط الذين كنت أجاهد لقتلهم، وكان هو أيضا من ناحيته يجاهد لقتلى .

وكان موقفنا كما أعلم .. حصار كامل ، ونار لا تهدأ ، ودبابات وطيارات ومنشورات أيضا ! وكان الصمت على الطريق كاملا الا دوى محرك الجيب .

وأوقفت سيارة الجيب فى حذاء مدرعة العدو ملاصقة ، وأطل ركابها من ضباط العدو علينا وفى عيونهم دهشة ، ثم استجمع واحد منهم كبرياءه وشد رأسه فى عنجهية مكشوفة ، وقال بالانجليزية :

" أنا المساعد الشخصى للقائد العام لهذا القطاع ، وأنا مكلف بأن أشرح لكم موقفكم . إنكم محاصرون من كل ناحية ، ونحن نطلب اليكم التسليم " .

وقلت له فى هدوء ، فقد نزلت على أعصابى سكينة غريبة :

" أما الموقف فنحن نعرفه جيدا، ولكن الاستسلام لن يحدث " .

ثم قلت دون أن تختلج فى صوتى نبرة :

" نحن هنا ندافع عن شرف جيشنا " .

وبدأ يتكلم بالعبرية وأحد مرافقيه يترجم ، ثم عاد يتكلم بالانجليزية ، ثم تنازل عن كبريائه ، وبدأ يتكلم العربية وهو يشرح لنا الموقف حولنا .

وقلت له : إنك تحاول عبثا ، ونحن نرفض الاستسلام .

وحملق فى وقال فى استنكار :

– " ألا ترجع الى قائدك تسأله " ؟

وقلت له :

– هذا موضوع ليس فيه مجال لسؤاله .

وحملق فى .. وساد الصمت بعض الوقت وهو ينظر الينا ونحن ننظر اليهم ، وفجأة أحسست أن قناع الكبرياء المصنوع على وجهه كله يرتفع ، وقال فى صوت خافت مؤدب :

– " لنا طلب انسانى عندكم " ..

قلت :

– ما هو ؟

قال :

– " نريد أن نسحب قتلانا عندكم من المعركة السابقة ، أنت تعرف أن أهل القتلى يحبون الاحتفال بدفن أبنائهم ، فهل تمانعون " ؟

ونظرت ، وصوته الخافت المؤدب يثير فى أعماقى شعورا غريبا بالراحة والرضاء :

– نحن نوافق لكم على هذا الطلب الانسانى .

وحين عدنا الى مواقعنا مرة أخرى عبر الطريق ، كانت سيارة الجيب الصغيرة التى كنا فيها تضج بالضحك والمرح .. كنا نقارن بين بداية المقابلة ونهايتها ..

العنجهية والكبرياء عند طلب التسليم ، والأدب والحياء عند طلب جثث القتلى !